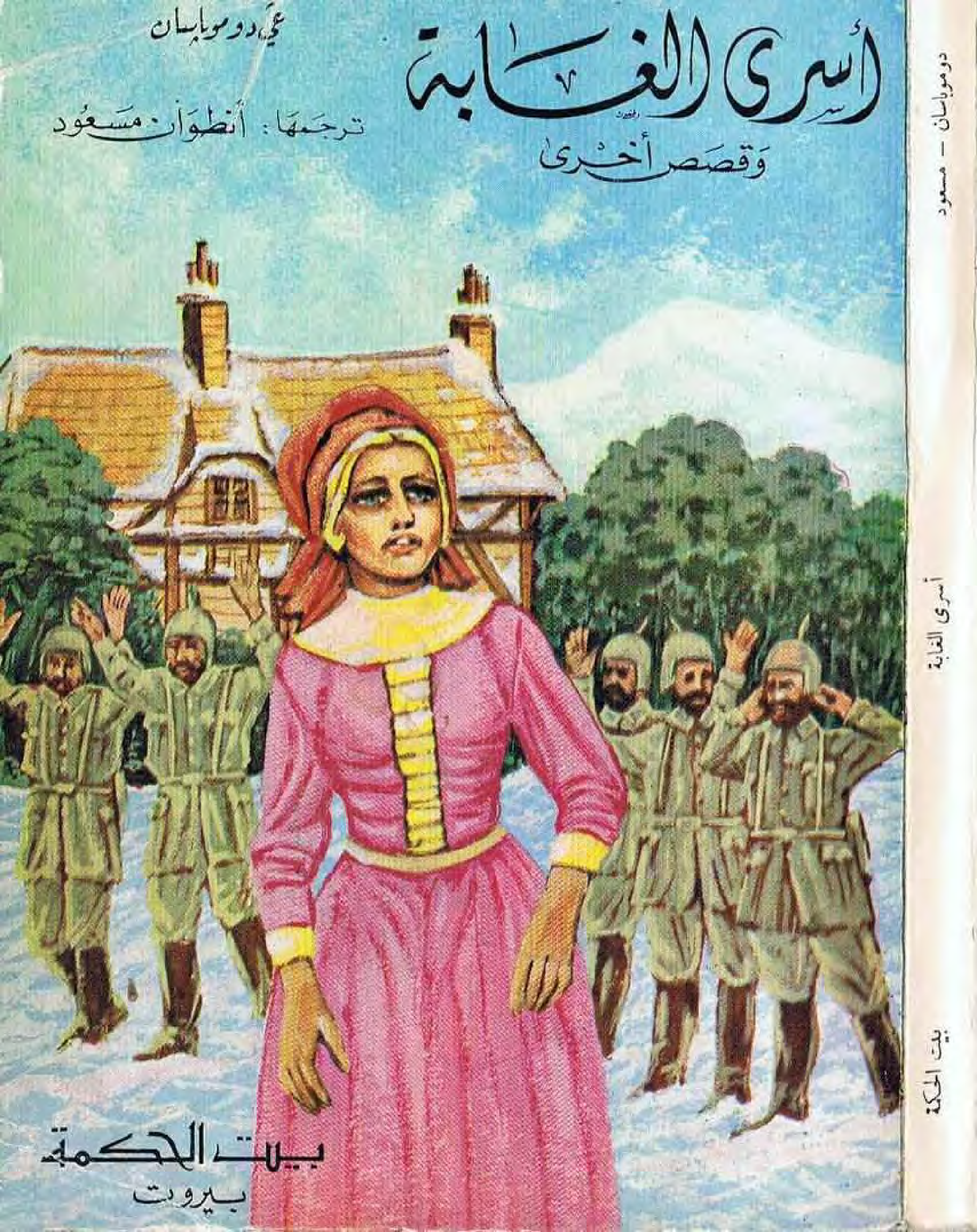


دوموباسان — مسعود

أسرى الغابة

بيت الحكمة

منشوراتنا القصصية

1. ١ يا بياع السمسمية
2. ٢ أبو الخيمة الزرقاء
3. ٣ حدثني يا ابي
4. ٤ اسرى الغابة
5. ٥ ملح ودموع
6. ٦ يوم عاد ابي
7. ٧ صندوق أم محفوظ
8. ٨ جدتي
9. ٩ عنب تشرين
10. ١٠ عازفة الكمان
11. ١١ وكان مازن ينادي
12. ١٢ كانت هناك امرأة
13. ١٣ يوم غضبت صور
14. ١٤ بابا مبروك
15. ١٥ الأنامل السحرية
16. ١٦ المغني الكبير
17. ١٧ جلجامش
18. ١٨ نور النهار
19. ١٩ النسر الكريم
20. ٢٠ رنين الخناجر
21. ٢١ النجمتان
22. ٢٢ اين العروس
23. ٢٣ جزيرة الوهم
24. ٢٤ الغرفة السرية
25. ٢٥ النار الخفية
26. ٢٦ الحاج بحبح
27. ٢٧ جوهرة الجواهر
28. ٢٨ دهليز الغرائب
29. ٢٩ التجاريب
30. ٣٠ الصحائف السود
31. ٣١ سلسلة من حكايات بيدبا
32. ٣٢ كوب من العصير
33. ٣٣ المنجّم «عصفور»
34. ٣٤ مغامرات أوليس
35. ٣٥ وطلع الصباح
36. ٣٦ اسطورة البحر
37. ٣٧ الشريط المخملي
38. ٣٨ سمايا
39. ٣٩ الشكبون
40. ٤٠ الحب والربيع
41. ٤١ غرباء
42. ٤٢ خاتم ... لبّيك!
43. ٤٣ وزّة الريش الذّهب

الثمن ■■■ ق.ل

غي دو موپاسان

أسرى الغابة

وقصص أخرى

ترجمها

أنطوان مسعود

بيت الحكمة
بيروت

الغلاف بريشة « زكريا كايا »
الرسوم بريشة « رضوان الشهّال »

الطبعة الخامسة ، بيروت – لبنان ، آب (اغسطس) ١٩٨٤

أُسْرى الغابة

ألغابة ساكنة باردة ، لا يشوب سكينتَها غيرُ حفيف الثلج الخفيف الذي يكسو الأشجار . بدأ الثلج يتساقط ، منذ الظهر ، رُقَعاً صغيرة ناعمة تنشُر على الأغصان مسحوقاً جليديّاً ، وتلقي على الأوراق الميتة قُبّة فضيّة ، وتخلع على الطرقات بِساطاً وثيراً متراميا ، فتُضفي على ذلك الصمت اللامتناهي مهابة ووقاراً .

أمام باب البيت ، في الغابة ، امرأةٌ صبيّة قد شمّرت عن زَنديها ، تشطُر حَطباً بفأس كبيرة . هي فارعة القامة ، نحيلة العود ، قويّة البِنية ؛ إنّها فتاة

من الغابات ، ابنة حطّابين ، وزوجُ حطّاب .

إنطلق صوت من داخل المنزل يخاطبها :

ـ « برتين » ، نحن اليومَ وحيدتان . وها إنّ الليل قد أقبل . هلمّي وادخلي الآن . فلربّما كان بعض البروسيّين أو الذئاب يُحوِّم على مقربة من هذا المكان .

أجابت الحطّابة وهي تشطر جِذعاً كبيراً بضرباتها القويّة :

ـ لقد فرغت من العمل يا أمّاهُ . ها أنذا ، لا عليكِ ، فالنهار لم يولِّ بعد .

حملت الحطب المشطور إلى الداخل فكدّسته قرب الموقد ، ثمّ خرجت فاغلقت الرّتاج المصنوع من سنديان غليظ ، وأحكمت إيصاد المَزاليج الثقيلة .

كانت أمّها تغزِل قرب النار ؛ هي عجوز متجعّدة أكسبتها السّنون حكمة وخَشية . فقالت لابنتها :

ـ إنّ الخوف ينتابني كلّما غاب والدك عن

المنزل . إن امرأتين وحيدتين لمخلوقان ضعيفان .

قالت الصبيّة وهي تشير إلى مسدس كبير كان معلّقاً فوق الموقد :

ـ لا تقلقي ، فباستطاعتي قتلُ ذئب أو بروسيّ إذا دعا الأمر إلى ذلك .

كان زوجها قد جُنِّد في مستَهلّ الغزو البروسيّ ، فبقيت المرأتان وحيدتين مع الوالد ، « نيكولا بيشون » ، الحارسِ القديم الملقَّب بـ « الرَّهْو » ، الذي كان يأبى بعناد شديد مغادرة مسكَنه للإقامة في المدينة .

وكانت « ريتيل » أقرب مدينة إلى ذلك المكان ، وهي موقع قديم حَصين جاثم فوق صخرة . كان سكّانها وطنيّين متحمِّسين ، وقد عقدوا العزم على مقاومة الغزاة ، وعلى البقاء في منازلهم للصُّمود في وجه الحصار وَفقاً لتقاليد المدينة ؛ فقد حدث مرّتين في الماضي ، في عهد « هنري الرابع » و « لويس الرابعَ عشَر » ، أن اشتهر أهالي « ريتيل » بدفاع بطوليّ ؛

فهم ، في هـــذه المرّة أيضاً ، لن يتخاذلوا ، حتى ولو أحرقهم العدوّ داخلَ جدران منازلهم .

لذلك ابتـاع السّـكان المدافع والبنادق ، وألّـفوا فرقة من الحرس ، وأنشأوا الكتائب والفرق ، وراحوا يتدرّبون كلّ يوم على استعـــمال السلاح . وانخرط في الفرق الخبّـــازون ، والسمّانون ، والقصّابون ، والكتّاب ، وموظّـفو المحـــاكم ، والنجّارون ، وأصحاب المكتبـــات ، والصّيادلة ، فكانوا جميعاً يشتركون بالمناورات مداورةً في ساعات معيّـنة ، بإمرة مسيو « لافين » الذي كان قديماً ضابط صفّ في الخيّـالة ، والذي أصبح خردجيّاً منـــذ أن تزوّج ابنة مسيو « رافوران » البكر وورث دكّـانه .

تقلّـد رتبة آمر المَـوقِع ؛ وبمـــا أنّ الشبّانَ كانوا قد التحقوا جميعاً بصفوف الجيش فقـــد جنّـد « لافين » الرجالَ الباقـــين ، فباشروا التدرُّب على المقاومة . كان البُدُن يعبُرون الشوارع والطُّـرقات عَدْواً لتذويب شَحمهم وللتجلُّـد وطولِ الأناة ، وأمّا

الهَـزْلى فكانوا يحملون الأثقال لتقوية عَضَـلاتهم .

على تلك الحـــال بات الجميع يترقّـبون قـدوم البروسيّـين بفارغ صبر . وطـال الانتظار والعـدوُّ متستّـر ، على الرغم من دنوّ قوّاته وتوغُّـل كشّافه في قلب الغابة مرّتين متتاليتين ، بالغين منزلَ « نيكولا بيشون » ، الملقّب بـ « الرّهو » .

في كلّ مرّة كان الحارس الهَـرِم يهرَع إلى المدينة متسلّلاً كالثّـعلب ، ناقلاً النّبأ إلى المدافعين المتربّـصين ، فتُصوَّب المدافع استعداداً ، والعدوّ لا يحرّك ساكناً ، وهو بعيد عن الأنظار .

كان مسكن « الرهو » بمثـــابة مَخفِر أماميّ في غابة « آفلين » ، وكان الرجل يقصِد إلى المدينة مرّتين في الأسبوع لشِراء المؤن ، ويحمل إلى السكّـان أخبار منطقته .

في ذلك اليوم ذهب إلى المدينة يُعلمها بأنّ مفرزة ألمانيّـة صغيرة قد مرّت بمنزله ظهراً منذ يومين ، ثم

انصرفت لتوّها ، وكان ضابط الصّفّ الذي يقودها يتكلّم الفرنسيّة .

كان « الرّهو » يصطحب في رحلاته إلى المدينة كلبين كبيرين من كلاب الحراسة ، شَدقُهما كشدق الأسد ، خوفاً من الذئاب الضارية ، مخلّفاً وراءه زوجَه وابنته ، مُوعزاً إليهما بالبقاء في المنزل بعد حلول الظلام .

لم تكن الصبيّة تخاف من شيء ، وأمّا العجوز فكانت متشائمة ما تفتأ تردّد بصوت مرتعش :

– ستكون العواقب وخيمة . لن ينتهي الأمر بسلام .

وفي تلك العشيّة كانت أكثر قلقاً من أيّ وقت مضى . قالت لابنتها :

– هل أخبرك والدك بساعة عودته ؟

– لن يعود قبل الحاديةَ عَشْرةَ . فهو يعود متأخّراً في كلّ مرّة يتناول فيها العشاء مع القائد .

همّت الصبيّة بأن تضع القِدر على النار لتحضير الحَساء ، فإذا بها تسمع حسّاً خافتاً تسرّب صداه عبر مَدخنة الموقد ، فتوقّفت قليلاً وأصغت إليه قائلة :

– أسمع وقع أقدام في الغابة . هنالك سبعة رجال أو ثمانية على الأقلّ .

أوقفت الأمّ مِغزلها وقالت متلعثمة :

– يا إلهي ! ماذا نفعل والوالد غائب عن المنزل ؟

لم تكد تلفظ كلمتها الأخيرة حتى كان الباب يهتزّ تحت قرع عنيف .

بقيت المرأتان صامتتين ، ولكنّ صوتاً أجشّ تعالى من الخارج ، يقول بلُكنة فرنسيّة :

– إفتحوا !

ثم عاد الصوت يقول بعد برهة صمت وجيزة

– إفتحوا وإلاّ حطّمتُ الباب !

عندئذ دسّت « برتين » المسدّس الكبير في أحد جيوبها ، ثم تقدَّمت وألصقت أذنها بالباب وسألت :

ـ مَن الطارق ؟

ـ أنا قائد المفرزة التي مرّت من هنا البارحةَ .

ـ ماذا تريد ؟

ـ لقد تِهنا في الغاب . إفتحي وإلاّ حطّمت الباب .

لم يكن لها خيار . أزاحت مِزلاج الباب ، وفتحت الدَّفّة الثقيلة ، وإذا بها ، في ظلال الثلوج الشاحبة ، أمام ستّة رجال ، ستة جنود بروسيّين ؛ فقالت بلهجة هادئة وهي رابطة الجاش :

ـ ماذا تريدون في مثل هذه الساعة ؟

ـ لقد تهنا ، ولكنّنا عرفنا المنزل . لم أذق ورجالي طعاماً منذ الصباح .

قالت « برتين » :

ـ ولكنّني وحيدة في المنزل مع أمّي .

أجاب الجندي ، وكان ، على ما يبدو ، طيّب القلب :

ـ لا بأس عليكما . لن يصيبكما أذى . ولكنْ عليك أن تحضّري لنا بعض الطعام .

قالت الحطّابة وهي تخطو خطوة الى الوراء :

ـ أُدخلوا .

دخلوا والثلج يغطّي ثيابَهم وخُوَذَهم ، وقد بدا عليهم الوَهَن والإرهاق .

أشارت الصبيّة إلى المقاعد الخشبية المصفوفة حول الطاولة وقالت :

ـ إجلسوا . ساحضّر لكم الحساء . إنّ العياء بادٍ على وجوهكم .

وعادت فاغلقت مزلاج الباب .

عكفت على القِدر تضع فيها المَزيد من الماء والزُبدة والبطاطا ، ثمّ تناولت قطعة من الدُّهن

معلَّقة إلى المدخنة فقطعت نصفها وألقت به في المَرَق .

كان الرجال الستَّة ينظرون إليها وفي أعينهم بريق جوع متوقّد . كانوا قد وضعوا بنادقهم وخوذهم في زاوية من الغرفة ، فباتوا ينتظرون هادئين كما يجلس الأطفال على مقاعد المدرسة .

وعادت الأم إلى مغزلها تنظر شَزْراً إلى الجنود الغزاة ، وهي ترتعد .

همدت الأنفاس في القاعة فلم يُسمع فيها غيرُ فحيح دولاب المغزل ، وزفير النار ، وخرير الماء الذي كان يغلي فوق الموقد .

إلاّ أنّ الجميع انتفضوا بغتة لسماعهم حسّاً غريباً يشبه نَفْثاً أبحّ ، نَفْثَ بهيمة ، بلغ مسامعهم قادماً من الشقّ في أسفل الباب .

وبوثبة واحدة كان ضابط الصفّ يهمّ بالتقاط إحدى البنادق ، إلاّ أنّ الصبيّة استوقفته بإشارة من

يدها وقالت مبتسمة :

ـ إنّها الذئاب . فهي في مثل حالكم ، تحومُ جائعة .

ولكنّ الرجل لم يصدّق ، فأراد أن يتثبّت بنفسه ؛ وما إن فتح دفّة الباب حتى أبصر حيوانين كبيرين أغبرين سارعا إلى الهرب خَبَباً .

عاد إلى مقعده وهو يتمتم قائلاً :

ـ لو لم أرَ ذلك لما صدّقت .

وبات ينتظر الطعام .

أكل الجنود بنَهَم شديد وأفواههم فاغرة حتى آذانهم ، وعيونهم مستديرة شأنها شأن فُكُوكهم ، تنطلق من بلاعيمهم جَرْجرة كأنّها جرجرة المياه في المَيَازيب .

وجلست المرأتان صامتتين تنظران إلى تلك اللُّحى الحمراء الكثّة وهي في صعود وهبوط سريعين ؛ وخُيِّل إليهما أنّ البطاطا كانت تغور غوراً في تلك

اللحى المتحرّكة .

وأعرب الجنود عن رغبتهم في الشراب ، فنزلت الحطّابة إلى القبو لإحضار بعض شراب التُّفّاح ، وبقيت هناك مدّة طويلة . كان ذلك المكان جُحراً صغيراً محدوداً استُخدم في الثورة كسجن وكملجإ على السّواء . وأمّا الوصول إليه فبواسطة مِرقاة ضيّقة لَولبيّة يسُدّها منفَذ ينفتح في طرف المطبخ .

وحين عادت « برتين » إلى المطبخ كانت تضحك ؛ وضعت بين أيدي الألمان إبريق الشراب ، ثم راحت تتناول الطعام ووالدتَها في الطرف الآخر من المطبخ .

فرَغ الجنود من الطعام ، وبدأ النُّعاس يُثقل أجفانهم وهم ما زالوا ملتفّين حول الطاولة ؛ فمن وقت لآخر كنت ترى جبهة متثاقلة تهوي فترتطم بالخشب ، فينتفض الغافل مذعوراً .

قالت « برتين » لضابط الصفّ :

ـ لماذا لا تستلقُون قرب النار ؟ فهنالك متّسَع

من المكان للجميع . وأمّا أنا فسأصعد إلى غرفتي مع أمّي .

وصعدت المرأتان إلى الدّور الأول ، فأوصدتا الباب ، وما هي إلاّ ثوانٍ قليلة حتى همَدت حركتهما .

تمدّد البروسيّون على البلاط ، وأقدامُهم إلى النار ، يتوسّدون معاطفهم الملفوفة ، وراحوا يغِطّون بعد حين ، كلٌّ بنغمته الخاصّة ، غطيطاً حادّاً أو رنّاناً ، غطيطاً لاغطاً متواصلاً .

كانوا قد استسلموا للرقاد منذ ساعات حين دوّى طلق ناريّ قريب وكأنّه خارج من بين جدران المنزل ؛ فاستفاق الجنود ونهضوا للحال ، ثم دوّت طلقتان أخريان ، أعقبتها ثلاثُ طلقات أخرى .

وانفتح باب الدّور الأوّل ، فخرجت الحطّابة في ثياب النوم تحمل شمعة في يدها ، وقد بدا الذُّعر في ملامحها . قالت متلعثمة :

ـ لقد أتى الفرنسيّون ، وفي الخارج منهم مئتان

على الأقلّ ! ولسوف يحرقون المنزل من غير تردّد إذا علموا بوجودكم . إنزلوا إلى القبو ولا تُحدثوا ضجّة ؛ فإن شعر الجنود بحركتكم ، عليكم وعلينا السّلام !

وتمتم ضابط الصفّ مذعوراً :

ـ أجل ، أجل ، ولكن من أين نهبط إلى القبو ؟

رفعتِ الصبيّة بعَجَلةٍ بابَ الأرض الضيّقَ المربع ، فنزل الجنود القَهْقرى يتحسّسون الدرجات ببطء وحذر ، ثمّ تواروا عن الأنظار في بطن الأرض .

وما إن غابت آخر خوذة وراء المنفذ حتى سارعت « برتين » إلى إغلاق العارضة السنديانيّة الثقيلة ، وكانت غليظة كالحائط ، صلبة كالفولاذ ، مزوّدة بقفل من أقفال السجون المتينة وبمفصّلات لا تقلّ عنها متانةً . ثم أحكمت إغلاقه بالمفتاح ، وانتصبت تضحك نَشْوَى ، وقد أخذتها رغبة جامحة في الرقص فوق رؤوس أسراها .

ولم تبدُر عن الجنود أيّة حركة وهم ، في عُلبتهم

الحجريّة المتينة ، لا يتلقّون النور والهواء إلا من طاقة تعترضها قضبان معدنيّة قويّة .

وعادت « برتين » إلى إشعال النار في الموقد ، وعلّقت من فوقه القِدر لتُعدّ المزيد من الحساء ، وهي تقول :

ـ لا ريب أنّ الوالد سيكون تَعِباً هذه الليلة !

ثمّ رجعت إلى مقعدها وباتت تنتظر . وفي الغرفة ، في غمرة الصمت ، كان رقّاص الساعة يُحصي الثواني ببطء .

وبين الفَينة والفينة كانت الصبيّة تلقي إلى الساعة نظرة مَلَل وكأنّها تقول :

ـ يا لتلك العقارب ! ما بالها تسير هكذا ، بطيئة كسلى ؟

مضت برهة تصاعد بعدها من تحت القاعة هَمْسٌ خافت ؛ وبدأ الجنود يتململون ، وكانت كلماتهم تبلُغ مسمع « برتين » غامضةً مبهَمة من خلال قبّة القبو

الحجريّة : فلقد أدرك البروسيّون خدعتها ! وبعد انقضاء دقيقة أو اثنتين صعد ضابط الصفّ مرقاة القبو الضيّقة ، وضرب باب السقف بقبضته وهو يصيح :

- إفتحوا الباب .

إقتربت الصبيّة وقالت مقلّدة لكنته البروسيّة الفرنسيّة :

- ماذا تريد ؟

- إفتحي !

- لن أفتح !

- إفتحي وإلاّ حطّمت الباب !

قهقهت وقالت :

- حطّمه يا صديقي ، حطّمه !

وشرع يضرب الباب بعقب بندقيّته ، ولكنّ قذيفة مدفع ما كانت لتخرق سنديان ذلك الباب المتين .

ثم قام الجنود كلّ بدوره يجدّدون المحاولة أو يعالجون القفل ، ولكنّ محاولاتهم باءت بالإخفاق ، فعادوا إلى أماكنهم يتداولون فيما بينهم .

أصغت الصبيّة برهة إلى حديثهم ، ثمّ نهضت من مكانها وفتحت باب المدخل ، وأصاخت في سكون الليل .

سمعت نباح كلب كان يقترب من المنزل باستمرار ، فصفّرت كما يصفّر الصيّادون ؛ وللحال انبثق من الظلمة كلبان هائلان وثبا نحوها وثبة فرحة ، فامسكت بعنقيهما لتهدّئهما ؛ ثمّ راحت تنادي باعلى صوتها :

- يا أبي !

أجابها من بعيد صوتٌ كالصّدى !

- يا « برتين » !

وكرّرت النداء ، ثم قالت موجّهة كلامها إلى أبيها :

- لا تمرّ من أمام واجهة البيت ، فهنالك ، في

القبو ، جنود بروسيّون .

ثمّ لاح لناظر الصبيّة طيفُ أبيها الذي وقف متستّراً بجذع شجرة ، فسأل بلهجة يشوبها القلق :

ـ بروسيّون في القبو ؟ وماذا تراهم يفعلون هناك ؟

ضحكت « برتين » وأجابت :

ـ هم أولئك الذين أتوا الليلة البارحة ، عادوا إلينا بعدما تاهوا في الغابة . وهم الآن في القبو لا حَوْل لهم ولا قوّة بعد ما اقتدتهم إليه خدعةً .

وقصّت عليه الحيلة من أوّلها ، وكيف أنّها أوقعت بهم بعد ما أطلقت من مسدّسها بعض العيارات الناريّة !

قال العجوز وهو واجم :

ـ ماذا تريدينني أفعل بهم في هذه الساعة ؟

ـ لماذا لا تذهب لاستدعاء مسيو « لافين » وجنده ؟

فهو سيلقي القبض عليهم بكلّ سرور .

إبتسم الأب « بيشون » وقال :

ـ أجل ، سيكون مسروراً جدّاً !

وأضافت الابنة قائلة :

ـ لقد أعددت لك بعض الحساء . تناول طعامك بسرعة قبل أن تنصرف .

جلس العجوز إلى المائدة وراح يأكل بعد ما ملأ صحنين وضعهما على الأرض أمام كلبيه .

وفي تلك الأثناء كان البروسيّون قد توقّفوا عن الكلام بعد ما سمعوا أصواتاً فوق رؤوسهم .

فرغ « الرّهو » من طعامه فعاد لتوّه نحو المدينة ، وعادت « برتين » تنتظر ورأسُها إلى كفّيها .

وعاد الأسرى إلى التململ واللغط ؛ فكانوا يصرُخون وينادون ، ويضربون باب السنديان ببنادقهم . بيد أنّ الباب بقي ثابتاً لا يتزعزع . ثمّ

راحوا يطلقون النار من خلال الطاقة علّهم يسترعون انتباه الألمان الذين يُحتمل وجودهم في الجوار .

ولم تاتِ الحطّابة حركةً . ولكنّ تلك الضجّة الصاخبة كانت تثير أعصابها ، واتّقد في صدرها سُخْطٌ حاقد ، فتمنّت لو أنّها تقضي على أولئك الأشقياء واحداً واحداً لإخماد أنفاسهم !

عِيل صبرها وزاد اضطرابها ، وعيناها عالقتان بساعة الحائط تعدّان الدقائق والثواني .

كان الوالد قد انصرف منذ ساعة ونصف الساعة. فهو إذاً قد وصل إلى المدينة حتماً . وخيّل إليها أنّها تتتبّع تنقّلاته : فها هو ينقل الخبر لـ « لافين » الذي شحُب لونه لشدّة تأثُّره ، والذي استدعى خادمته لكي تحضّر له بزّته وأسلحته ؛ وتخيّلت ضارب الطبل يجوب الطرقات مُطبّلاً ، والرؤوس تمتدّ من النوافذ مذعورة ، والجنود يخرجون من بيوتهم مهرولين ، يشدّون أحزمتهم منطلقين كالسهام شطرَ

منزل قائدهم ؛ ثم تراءت لها الفرقة وعلى رأسها « الرهو »، تتقدّم في غمرة الثلوج ، وتشقّ ستار الليل باتّجاه الغابة .

وحدَجت الساعة مرّة أخرى ، وقالت تخاطب نفسها : « قد يصلون في غضون ساعة » .

يا له من انتظار لا نهاية له ! فالدقائق تبدو وكأنّها ساعات . للقلق المضني !

وانتهت المدّة التي حدّدتها « برتين » كمهلة قصوى لوصول النجدة .

وعادت إلى الباب ففتحته ، فرأت للحال طيف رجل يسير باحتراس كثير ؛ فارتاعت ، وانطلقت من حنجرتها صيحة قصيرة . كان هذا القادم والدها . فقال لها :

ـ لقد تقدّمت الرّكب لأرى ما إذا كان الوضع على حاله .

ـ كلّ شيء على ما يرام .

أطلق « الرّهو » صَفْرة طويلة حادّة حمل الليل صداها إلى أقاصي الغابة .

وعلى الأثر راحت أطياف قاتمة تتسلّل بين الأشجار بتأنٍّ وحيطة : إنّها المقدّمة المؤلّفة من عشَرة رجال . وكان « الرهو » يردّد من غير انقطاع :

ـ حذارِ المرور من أمام طاقة القبو !

وأخيراً وصلت الفرقة بكامل عُدّتها ، وقِوامُها مئتا رجل يحمل كلٌّ منهم مئتي رصاصة .

وأمّا مسيو « لافين » ، الذي كان يرتعش تأثّراً ، فقد وزّع رجاله حول المنزل يطوّقونه ، تاركاً مساحة واسعة خاوية أمام طاقة القبو الذي سُجن فيه البروسيّون .

ثم دخل إلى المنزل يستقي المعلومات عن العدوّ ، وعن مدى قوّته ، وطريقة تصرّفه ؛ وكان البروسيّون إذ ذاك قد اعتصموا بهدوء تامّ ، وكأنّ الأرض قد

ابتلعتهم ، أو كأنّهم قد طاروا من خلال قضبان نافذتهم الصغيرة .

ضرب مسيو « لافين » باب الأرض بقدميه وصاح :

ـ سيّدي الضابط البروسيّ !

فبقي نداؤه من غير جواب !

ـ سيّدي الضابط البروسيّ !

لا حياة لمن تنادي ! واستمرّ « لافين » مدّة عشرين دقيقة يدعو الضابط الساكن إلى الاستسلام بأسلحته وعَتاده ، وهو يعده بالإبقاء على حياته وحياة جنوده ، والحفاظ على كرامتهم العسكريّة ؛ ولكنّه لم يتلقَّ أيّ جواب ، نفياً أو إيجاباً ، فغدا الوضع حرِجاً للغاية .

كان الفرنسيّون يضربون الثلج بأرجلهم ، وهم ينظرون إلى الطاقة ، وفي نفوسهم رغبة ساذجة في المرور من أمامها . وأخيراً قام أحدهم بتلك المغامرة غيرَ مبالٍ بما يتعرّض له من خطر ، وكان مَرِناً

سريع الخُطى ، فاندفع وثباً إلى الأمام ومرّ قبالة الطاقة خفيفاً كالغزال ، فنجحت تجربته وبدا وكأنّ الأسرى قد فارقوا الحياة .

وقال أحد الفرنسيين :

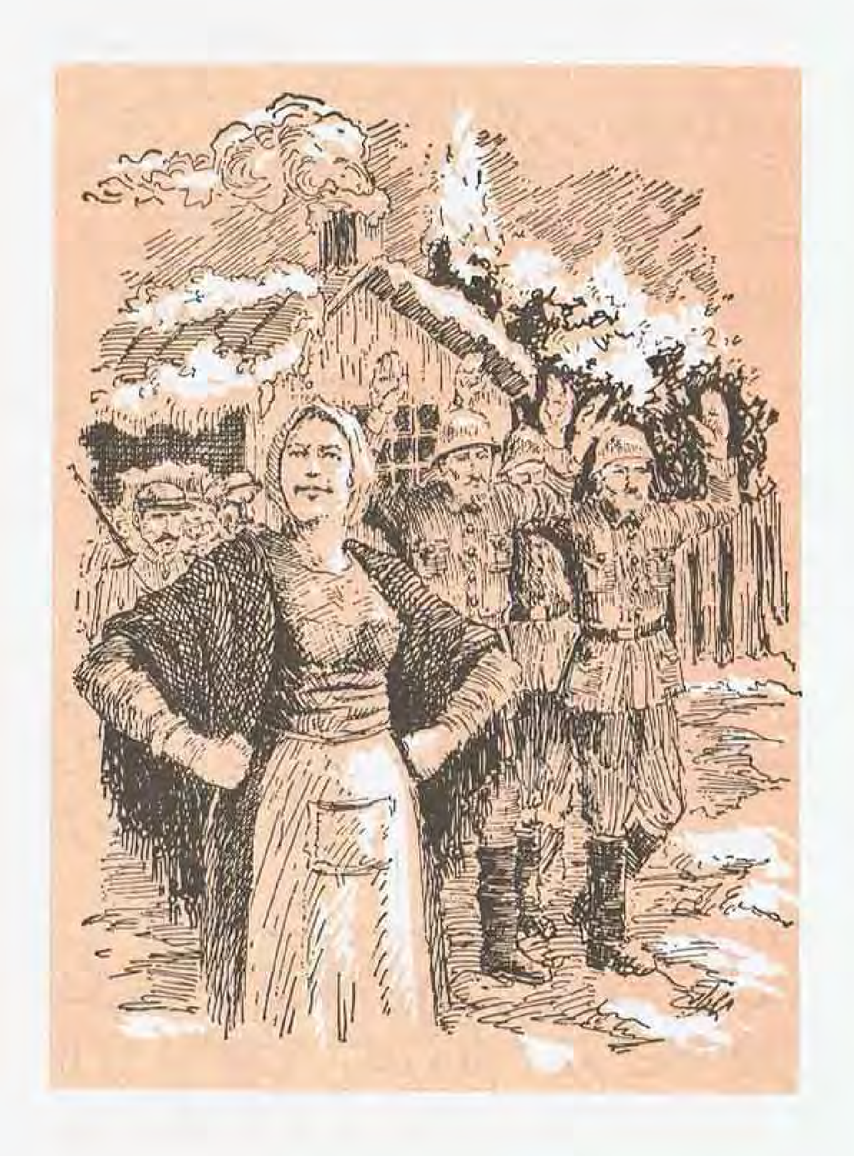
ـ ليس هنالك أحد .

واجتاز جنديّ آخر الساحة الخاوية أمام الثقب الخطير . وبعد ذلك بات الأمر لهو أطفال : ففي كلّ دقيقة كنت ترى رجلاً ينطلق بخفَّة ، يتعرّج في عَدْوه ، مخلّفاً وراءه غبارَ ثلج ناعم . وكانت النار التي أشعلها القادمون للاستدفاء تعكس طيفَ كلّ فرد من أفراد الحرس الوطنيّ في رحلته القصيرة من شقَّة اليمين إلى شقَّة اليسار .

وصاح أحدهم :

ـ لقد جاء دورك يا « مالوازون » .

كان « مالوازون » خبّازاً بديناً، وكان بطنه الرّحب يثير ضحك رفقائه .



بقي « مالوازون » متردّداً ، والباقون يسخرون منه .
عندئذٍ استجمع قواه وتحرّك ببطء ، ثم اندفع بخطى رياضيّة منتظمة ، وتنفّسه المتسارع يرجرج كرشه المنفوخة .

وضحك الجميع حتى سال الدمع من العيون ؛ وكانوا يصيحون به تشجيعاً :

ـ أحسنت يا « مالوازون » ! أحسنت !

إجتاز الخبّاز البدين ثلثي المسافة وبات قريباً من هدفه ، بيد أنّ بريقاً أحمر خاطفاً انبعث فجاة من الطاقة أعقبه دويٌّ صاعق ؛ فخرّ الخبّاز على وجهه يصيح من شدّة ألمه .

لم يتقدّم أحد من المصاب لنجدته ، فراح الخبّاز يزحف على يديه وركبتيه ؛ وما إن ابتعد قليلاً عن الممرّ المخيف حتى أُغمي عليه . لقد أصابته الرصاصة في أعلى فخذه .

ثمّ زال تأثير الخوف والمفاجأة فعادت القهقهة

تتفجّر من حناجر المهاجمين .

في تلك اللحظة خرج « لافين » ووقف أمام عَتَبَة المنزل ، وكان قد وضع مخطّطاً للهجوم . فأمر بصوت مدوٍّ :

ـ ألسّمكريّ « بلانشوت » وعمّاله .

فتقدّم منه ثلاثة رجال .

ـ فكّوا مَيازيب المنزل بسرعة

وعاد العمّال الثلاثة بعد ربع ساعة يحملون إلى « لافين » عشرين متراً من أنابيب الميازيب .

وأمر « لافين » بثقب حفرة ضيّقة في باب القبو الأرضيّ ، ثمّ وصل مضَخّة الماء بالحفرة بواسطة الأنابيب ، وقال وهو راضٍ بادي السرور :

ـ والآن سنقدّم للسادة الألمان قليلاً من الشراب!
أطلق الجنود صيحة إعجاب شديدة ، مشيِعين بضحكهم المفرط وغبطتهم الغامرة جَلَبة وفوضى .
وقسّم القائد الفرنسيّ جنوده مجموعاتٍ صغيرة

تتناوب العمل في فترات منتظمة ، ثمّ قال بلهجة آمرة :

ـ ضخُّوا الماء !

وتحرّكت يد المضخّة الحديديّة ، فانساب في داخل الأنابيب خريرٌ ضعيف ما لبث أن بلغ القبو متحوّلاً هناك إلى همس يشبه همس الشلاّلات .

وكان انتظار طويل . إنقضت ساعة ، ثم انقضت ساعتان ، فثلاث ساعات .

كان « لافين » يذرع القاعة محموماً ، يستطلع أخبار العدوّ ، متحرّياً سلوكه ، متحرّقاً لاستسلامه الوشيك !

ولوحظ فجأة أنّ العدوّ قد بدأ يضطرب . كان البروسيّون يحرّكون البراميل ويتخاطبون ، والمياه التي غمرتهم تهيج وتموج .

وعند الساعة الثامنة صباحاً انطلق من الطاقة صوت يقول :

ـ أريد أن أكلّم الضابط الفرنسيّ .

وأجاب « لافين » من خلال النافذة محاذراً :

ـ هل تريد الاستسلام ؟

ـ إنّني أستسلم .

ـ إذاً ألقوا بأسلحتكم خارجاً .

وبرزت من خلال القضبان الحديديّة بندقيّةٌ أولى سقطت فوق الثلج ، ولحقت بها بندقيّة ثانية ، فثالثة ، وهكذا حتى آخر قطعة من سلاح الجنود الأسرى . وقال البروسيّ :

ـ لم يبقَ لدينا الآن أيّ سلاح . أسرع ، فقد أشرفنا على الغرق .

ونظر « لافين » إلى رجاله وقال :

ـ أوقفوا الضّخّ .

فهوت يد المضخّة وتوقّف انسياب الماء .

ملأ « لافين » المطبخ بالجنود ، فوقفوا

مستعدّين لإطلاق النار ؛ ثمّ تقدّم ورفع ببطء بابَ السنديان الصغير ، فبرزت رؤوس أربعة مبلّلة ، أربعة رؤوس شقراء ، بشعرها الشاحب الطويل ؛ ثم خرج الجنود الألمان الستّة الواحد تلو الآخر ، وأسنانُهم تصطكّ برداً ، والمياه تتصبّب منهم ، والذعر بادٍ في عيونهم .

أُلقي القبض عليهم وأُحكم وِثاقهم . وبعدئذ انقسم الرجال قافلتين ساقت إحداهما الأسرى ، وحملت الثانية « مالوازون » الجريح فوق حمّالة خشبيّة . فكان دخولهم إلى « ريتيل » دخولَ المنتصرين .

قلّد « لافين » وساماً رفيعاً تقديراً لنجاحه بأسره جنوداً من الأعداء . وأمّا الخبّاز البدين فقد حاز الداليّة العسكريّة لإصابته بالجروح وهو يقاتل العدوّ !

الحارس

بعد العشاء ، جلس المدعوّون يسردون قصص الصيد بما فيها من حوادث ومغامرات مثيرة .

وشخصت الأبصار إلى « بونفاس » ، أحد المدعوّين ، وهو صيّاد ماهر ، صلب العود ، مرح الطِّباع ، سريع البديهة ، ذو دعابة بريئة محبّبة .

تنحنح « بونفاس » وقال وهو يستقيم في جلسته :

ـ أعرف قصة صيد ، أو بالحري كارثة صيد ، بالغةَ الغرابة . وهي لا تشبه البتّة أيّة قصّة أخرى من قصص الصيد . وإنّي لم أقصّها على أحد قبل اليوم ، لاعتقادي بأنّها قد لا تسلّي أحداً . فطابعها لا يملِك

على المُستمِع حواسَّه ولا يأخــذ بمَجامع قلبه ، ووقعها في النفس لا حلاوة فيه إطلاقاً .

كنت آنذاك في الخامسة والثلاثين من عمري ، ومن عشّاق الصيد الواهين . وكانت لي في جــوار « جومييج » أرضٌ منعزلة ، تحيط بها أحراج تكثر فيها الأرانب البرّيّة . ولم أكن أذهب إلى ذلك المكان إلاّ أربعةَ أيّام أو خمسة في العام ، أذهب وحيداً ، إذ لم يكن في المسكن متَّسَع لإقامة أكــثر من شخص واحد .

وقد أقمت آنذاك على المكان حارساً ، هو جنديّ متقاعد شجاع ، حادّ الطبـاع ، شديد المحافظة على الأنظمة والقوانين ، عدوّ لدود لمن يتعاطى الصيد الحرام . وكان يسكن بمفرده منزلاً صغيراً بعيداً عن القرية ، في دوره الأرضيّ غرفتان ، الأولى سقيفة ، والثانية مطبخ ، وفي دوره الأوّل غرفتان للنوم واحدة منهما خاصّة بي ، لا تتّسع لأكثر من سرير وخزانة وكرسيّ واحد .

وكان الأب « كافالييه » يحتلّ الغرفة الأخرى . ولا أظنُّني صدَقْتُك القولَ حين قلت إنّه كان وحيداً في مسكنه ؛ فقد كان في الواقع يقــيم فيه مع ابن أخيه ، وهو فتى طالح ، في الرابعة عشرةَ من عمره ، كان يقصِد إلى القريـة التي تقع على بعد ثلاثــة كيلو مترات لشِراء المُؤن ، ويُعين العجوز في أعماله اليوميّـة .

كان ذلك الفتى الشقيّ هزيلاً فارع القَـوام يميل إلى الانعقاف ، ذا شعر أصفرَ قليلٍ يشبه عُـرف دجاجة منتوفة ، حتى ليَبدو وكأنه حليق الرأس . وأمّـا يداه وقدماه فكانت ضخمة هائلة كقوائم فيل .

كان حَولِاً ، لا ينظر إلى أحد أبداً . وكنت أشعر أنّه في الناس بمثابة البهائم النَّتِنة في الحيوانات ، فهو أشبه بثعلب أو بابن عرس .

كان ينام في جُحر صغير في أعلى السُّلَّم الذي يرتقي إلى غرفتَـي النــوم . إلاَّ أنّ « ماريوس »

كان ، خلال إقامتي القصيرة في « الجَناح » - وقد أسميت ذلك المسكن الحقير جناحاً ! - يعيركوّته امرأةٌ عجوزاً اسمُها « سيليست » كانت تأتي لتحضّر لي طعاماً يغنيني عن طعام الأب « كافالييه » الشّحيح .

أمّا الآن ، وقد تعرّفتم إلى شخصيّات الراوية ومسرحها ، فهاكُم قصّتي :

وافق ذلك اليومُ ١٥ تشرين الأوّل ١٨٥٤ ، ولن أنسى التاريخ ما حييت .

غادرت « رووان » على صَهوة جوادي ، يتبعني كلبي « بوك » ، وهو عريض الصدر واسع الشّدْق ، وقد تقلّدت بندقيّتي ، وعلى ردِف مَطيّتي جِرابُ سفري. كان الطقس بارداً ، والريح تَصفِر كئيبةً ، والسماء موشّحة بغيوم قاتمة .

وأثناء عبوري عَقَبة « كانتولو » جلت بطَرْفي في وادي « السين » العريض الذي يقطعه النهر حتى الأفق متعرّجاً كالأفعى ؛ فإلى اليسار تشمَخ « رووان » نحو

الفضاء بقُبَبها ، وإلى اليمين تحُدّ الرؤيةَ أراضٍ مترامية تغطّيها الأحراج . إجتزت غابة « رومار » ، تارةً على مَهْل ، وتارةً خَبَباً ، وبلغت « الجَناح » قُبيل الساعة الخامسة ، فإذا بالأب « كافالييه » و بـ « سيليست » ينتظران وصولي .

فلعشر سنوات خلت بقيت أقصد ذلك المكانَ بالطريقة نفسها ، وكان الاثنان يستقبلانني بتَرحاب مماثل :

- أسعد الله يومك يا سيّدي . كيف صحّتك ؟

لم يتبدّل في « كافالييه » شيء إطلاقاً ؛ فهو صامد في وجه الأيّام كشجرة هَرِمة صُلبة . بيد أنّ « سيليست » قد تغيّرت تماماً ، وبخاصّة خلال السنوات الأربع الأخيرة . غدت منقصِمة الجسم ، تمشي وظهرها منعطف إلى الأمام حتى ليكاد يرسم مع ساقيها زاوية مستقية .

كان التأثّر يرتسم على وجه تلك المرأة العجوز



المخلصة كلّما عادت إلى مشاهدتي، وكانت تقول لي كلّما غادرت المكان :

ـ من يدري يا سيّدي العزيز ، فقد تكون هذه آخر مرّة .

كان وَداع تلك الخادمة المسكينة بما فيه من كَدَر وَوَجَل ، وذلك الخضوع المذعن في حضرة الموت المُحدق ، يُحدثان في نفسي وقعاً غريباً في كلّ عام .

ترجّلت عن الجواد ، واقتاد « كافالييه » مطيّتي إلى الإسطبل الصغير بعد ما صافحته بحرارة ، ثمّ دخلت ، و« سيليست » في أعقابي ، إلى المطبخ الذي كان في الوقت نفسه غرفة للطعام .

ولحق بنا الحارس بعد برهة . ونظرت إليه فخيّل لي أنّ هاجساً كان يشغَله : فالقلق بادٍ على مُحيّاه ، وهو منحرف المزاج . قلت له :

ـ قل لي يا « كافالييه » ، هل كلّ شيء على ما يرام ؟

فأجاب متمتماً :

ـ نعم ولا . فهنالك أمور لست راضياً عنها البتة .

سألت :

ـ وما الذي يوغر صدرك يا عزيزي ؟ أطلعني على سرّك .

فهزّ رأسه وقال :

ـ لا ، ليس الآن . لا اريد أن أضايقك ساعةَ وصولك بما يُقضّ عليَّ مضجعي .

وألححت في معرفة الأمر ، ولكنّه امتنع عن الحديث قبل موعد العشاء . ومع ذلك فقد أيقنت للحال أنّ القضيّة بالغة الأهميّة ، فبقيت صامتاً لا أدري ماذا أقول ؛ ثم سألته بعد ما أعيتني الحيلة :

ـ هل الصيد جيّد هذه السنة ؟

ـ آه ، أجل ، إنّ الصيد كثير كثير . فلسوف تُروي منه غليلك . لقد سهرت على حماية الطرائد ، والحمد لله .

قال هذا برصانةٍ بلغت حدّاً مضحكاً ، وإذا

بشاربيه الأشهبين وكأنّهما سيهويان من فوق شفتيه .

وفجأة تنبّهت إلى إنّني لم أرَ نسيبه منذ وصولي ، فقلت :

ـ أين « ماريوس » ؟ لم أرَه بعدُ .

فانتفض الحارس وقد فاجاه السؤال ، فحدّق إلى وجهي وقال :

ـ سيّدي ، أظنّ أنّ الوقت قد حان لكي أخبرك بالأمر من غير تأخير . فالذي أكابده له بـ « ماريوس » علاقةٌ وثيقة .

ـ أين هو ؟ تكلّم .

ـ إنّه في الإسطبل يا سيّدي ، وكنت أرقُب حضوره بين لحظة وأخرى .

ـ وماذا به ياترى ؟

ـ إليك القصّة يا سيّدي ...

تردّد الحارس ، وارتسم الغمّ على أخاديـــد وجهه الهرم . ثم استطرد بصوت متّـزن :

ـ خلال الشتاء المنصرم تبيّـن لي أنّ أَحدهم كان ينصِب الفِخاخ في غابـــة « روزري » ، ولكنّـني لم أتمكّـن من القبض على الفاعـل . وقضيت في ذلك المكان ليلةً بعد ليلة ، ولكنْ من غير جدوى . وفي تلـك الأثناء راحت اليد الأثيمـــة تتعاطى الصيد المحرَّم في ناحية « إيكورشفيل » ، فاصابني الهزال لشدّة مـــا عانيت من الكَـدَر . وكان القبض على الغادر يبدو مُـحالاً ، فكانّـي به كان عالماً بتنقّـلاتي ، واقفاً على مخطّـطاتي .

« وحدث ذاتَ مرّة ، بينا كنت أُنظّـف سراويـل « ماريوس » ، أن وجدت في أحد جيوبه أربعين فلساً ، فتساءلت : من أين له مثل ذلـــك المال ؟ وبتُّ أفكّر بالأمر أيّامـــاً طويلة ، وفي تلك الأثناء لاحظت أنّ « ماريوس » كان يغادر المنزل في الوقت الذي أَعود فيه إليه للراحة . أجل يا سيّـدي . . .

« وبقيت أراقبه من غير أن تخامرني ريبـــة .

وفي ذات صباح خرج « ماريوس » من المنزل خلسةً ، فرحت أتعقّبه وهو يظنّ أنّـني نائم في المنزل . وأنت تعلم يا سيّـدي أنّـي في اقتفاء الأثر فريد لا صِنوَ لي . وما هي إلاّ لحظـــات حتى أمسكت به ، هو « ماريوس » ، ينصب الفخـــاخ في أراضيك أنت يا سيّـدي ، هو ، نسيبي أنا ، حارسك .

« أُصبت بصدمة تفوق حدّ الوصف ، وكدت أن أقتله لفَـرط مـا كِلت له من الضرب المبرِّح ، وقد أَوعدته بعقاب مماثل أمامك للعِبرة .

« هذا كلّ مـــا في الأمر . لقد هزلني الغَمّ والكدر . ولا إخالك كنت تفعل غير ما فعلت لو أنّـك مُنيت بخيبة كهذه . فهذا الصبيّ يتيم الوالدَين ، وليس له من قريبٍ سواي . لذلك أبقيته رغم فَعلته الشّنعاء ، ولم أكن قادراً على طرده ، إلاّ أنّـني أنذرته بطرده إن هو عاد إلى مثـل هذا العمل ، فلا شفقـة إذ ذاك ولا رحمة . أفلا تظنّ يا سيّـدي أنّـي كنت محقّاً في ما فعلت ؟ »

أجبته وأنا أمدّ إليه يدي :

- لقد أحسنتَ صُنعاً يا « كافالييه » . إنّك لرجل طيّب .

فقال وهو يبرح مكانه :

- شكراً جزيلاً يا سيّدي . أمّا الآن فسأذهب سعياً وراءه لينال العقاب الذي يستحقّ .

كنت أعلم أنْ لا مجال لردّه عن عزمه ، فتركته يتصرّف كما يشاء .

عاد بالصبيّ ممسكاً به من أذنه ، وكنت جالساً على كرسيّ من القشّ ووجهي جامد القَسَمات كوجهِ قاضٍ في محكمة . وخُيّل لي أنّ « ماريوس » قد كبر ، وأنّ قبحه قد زاد عن ذي قبل بشراسته البيّنة ووجهه المُرائي ، وأمّا يداه فكانتا تبدوان هائلتين أبداً ودوماً .

دفعه عمّه أمامي وأمره بلهجته العسكريّة :

- أطلب الصّفح من السيّد .

فبقي الصبيّ صامتاً .

عندئذٍ أمسك به الجنديّ القديم من تحت إبطيه وانهال عليه ضرباً قاسياً ، حتى إنّني نهضت من مكاني لأضع لذلك العنف حدّاً .

وفي تلك اللحظة راح الصبيّ يصيح من كثرة الألم :

- ألرّحمةَ ! الرحمة ! الرحمة ! إنّني أتعهّد ...

خلّى « كافالييه » سبيله ، ثمّ ضغط على كتفيه وأرغمه على الرّكوع أمامي ، وقال :

- أطلب الصّفح .

فقال الصبيّ وهو يحدّق إلى الأرض :

- إنّني أطلب الصفح .

فرفعه عمّه وصرفه بصفعة كادت تفقده توازنه ؛ ففرّ الصبيّ ولم يعد إلى الظهور في تلك الليلة .

كان الذهول بادياً على « كافالييه » ، فقال بلهجة يائسة :

– إن هذا الصبيّ نجس شرير .

ولم ينفكّ يردّد أمامي طوالَ فترة العشاء :

– هذا الأمر يكاد يقتلني ! لو تعلم مدى شقائي !

وحاولت أن أخفّف عنه ، ولكنّ العجوز بقي على حاله ، صامتاً ، مقطّب الجبين .

طلبت الراحة باكراً في تلك الليلة ، وفي نيّتي أن أنهض للصيد في فجر اليوم التالي . وعندما عَمَدت إلى الشّمعة التي تنير غرفتي فاطفأتُها ، كان كلبي قد تمدّد على الحضيض أمام السرير .

عند منتصف الليل أفقت على « بوك » الذي كان ينبَح نُباحاً شديداً ، فوجدت الغرفة ممتلئة دخاناً . أضأت الشمعة وأسرعت نحو الباب أفتحه ، فاجتاحت الغرفةَ عاصفةٌ من لَهَب .

لقد شبّت النار في المنزل تلتهم جوانبه كافّة .

سارعت إلى إغلاق الباب المصنوع من السنديان

الغليظ ، وارتديت ثيابي بسرعة ، ثمّ دلّيت كلبي من النافذة بواسطة حبل صنعته من أغطية السرير ، ولحقت به بعدما أنزلت ما لديّ من ثياب وسلاح ومتاع . ورحت أصرخ بأعلى صوتي :

– كافالييه !.. كافالييه !.. كافالييه !...

ولكنّ الحارس كان ينام نوماً عميقاً ، نوم الجنديّ القديم التَّعِب .

ومن خلال نافذة الطابق الأرضيّ ألقيت نظرة إلى الداخل فإذا بالمنزل أتُون متأجّج . ولاحظت أنّ أحدهم كان قد كدّس في المكان قشّاً يابساً لإضرام النار ، فادركت للحال أنّ يداً قد أشعلت النار عمداً ، وأنّ الأمر لم يكن مجرّد حادث طارىء .

وعدت أصرخ بأعلى صوتي :

– « كافالييه » !

وظننت برهة أنّ الدخان خنق أنفاسه ، فصوّبت بندقيّتي إلى النافذة وأطلقت في قلبها عياراً واحداً ،

فتناثر الزجاج في داخـــل الغرفة فُتاتاً . عندئذٍ أفاق العجوز ، وأطلّ بثياب النوم هلِعـــاً يبهرُ بصرَه ذلـك النورُ الوهّـاج الذي أضاء واجهة مسكنه السُّفلى .

ناديته وأنا أصرخ عالياً :

ـ أسرعْ ، إنّ البيت يحـــترق . أهبُطْ من النافذة . أسرع !..

بـــدأت ألسنة اللهيب تتدفّـق من الثغرات في الطابق الأرضيّ ، متسلّلة على طول الجـــدران في ارتقاء سريع راح يضيّـق الخناق على الحارس المسكين . إلاّ أنّ العجوز أسرع في القفز خفيفـــاً كالهرّ فنجا بذلك من مـــوت محتوم ، إذ إنّ سقف القشّ انهـــار دفعة واحدة بعد خروجه . وتصاعدت في الجوّ باقةٌ حمراء محرقـــة نثرت حول المسكن رَذاذاً من شَرَر . وما هي إلاّ ثوانٍ قليلة حتى اشتعل المسكن بكامله .

وسأل « كافالييه » وقد أصابه الذهول :

ـ كيف شبت النار ؟

فأجبت :

ـ لقد أشعل أحدهم النار في المطبخ .

ـ من تراه قام بمثل هذا العمل ؟

ـ قلت وقد تنبّـهت فجأة للأمر .

ـ « ماريوس » .

وأدرك العجوز حقيقة الأمر . فقال متلعثماً :

ـ يا إلهي ، أنا أعرف الآن لماذا لم يعد إلى المنزل مساء كالمعتاد !

ولكنّ فكرة رهيبة قطعت عليّ حبال تأمّلي . فصحت مذعوراً :

ـ و « سيليست » ، أين « سيليست » ؟

لم يَنبِس الحارس بكلمة . وفجأة انهار المسكن أمامنا ، فبات كأنّه موقـــد غليظ دامٍ ؛ وأيقنت آنذاك أن المسكينة قد استحالت جمرةً حمراء ، جمرة

من لحم بشريّ .

وأيقنت أنّ النار المنتشرة سوف تبلغ الحظـــيرة ، ففكّـرت بحصاني الذى كان في داخلها ، فهرع « كافالييه » لإنقاذه .

وما إن فتـــح « كافالييه » باب الإسطبل حتى تعثّر بجسد ليّـن سريع تسلّـل من بين ساقيه فالقاه أرضاً . إنّـه « ماريوس » الذي أطلق ساقيه للريح . ونهض الحارس يحاول اللحاق بالشقيّ للقبض عليه ، ولكنّـه سرعان ما علم أنّـه عاجز عن ذلك ؛ إذ ذاك اجتاحته غضبـة غامرة ، وبحركة لا واعية التقـط بندقيّتي التي كانت أمامه على الأرض ، فأسندها إلى كتفه ، وأطلق النار قبل أن أتمكّـن من ردَعه .

كانت إحـدى القذيفتين قد بقيت في البندقيّـة بعدما أطلقت النـار على النافذة ؛ فاصابت الفـارَّ في وسط ظهره ، فسقط على الأرض يعفّـر التراب بوجهه ، ويتخبّـط في دمه . ثم استقام برهة على يديه وركبتيه

كأنّه يريد العَدْو على أربع ، على طريقة الأرنب البرّية الجريح التي ترى الصيّـاد مقبلاً نحوها .

وانطلقتُ إليه مهرولاً ، فإذا به في نزاعه الأخير ؛ ولم تكد أنفاس الحريق تهمُد حتى كان هو الآخر جثّـة هامدة .

ووقف « كافالييه » بقميص نومه ، عاري القدمين، جامدَ الأوصال ، فاغراً فاه .

وصل القرويّون إلى مكان الكارثـــة ، فحملوا الحارس وهو شبه مجنون .

مثُلت بين يدَي المحكمة للإدلاء بشهادتي ، فسردت وقائع الحادث بكاملها . وأُخلي سبيل « كافالييه »،ولكن الحارس غادر المنطقة في اليوم نفسه إلى غير عودة . ولم أرَه منذ ذلك الحين .

إنتِقَام أُمّ

١

كانت آخر زياراتي لـ « فيرلون » لخمسَ عشْرة سنة خلت . وبعد تلك المدّة الطويلة عـــدت إليها في الخريف لأصطاد عند صديقي « سرفال » بعدما رمَّم قصره الذي دمّـره البروسيّـون .

كنت أحبّ تلك المِنطقة حبّاً جمّاً ؛ فهي من تلك البقاع النادرة التي تمـــلأ العين سحراً جذّاباً . والإنسان مفطور على حبّ الأرض التي يعيش فيها ، يشُـدّه إليها إغراءٌ صارخ ، ويحتفظ بذكريات عذبة لبعض ينابيعها ، وأحراجها ، ومستنقعاتها ، وتلالها ،

تلك التي مرّ بها غيرَ مرّة ، والتي خلّفت في قلبه سعادة وحنيناً . وفي بعض الآونة ترجعِ الذكرى بالإنسان إلى ماضٍ سحيق ، إلى زاوية من غابة ، أو منعطَفٍ من ضِفَّة نهر ، أو إلى بستان أخضرَ عابقٍ بالزهر في يوم ضاحك ، فتبقى هذه الرُّؤى منطبعة في مخيّلته .

في « فيرلون » كنت أحبّ الريف كما هو ، بأحراجه الصغيرة ، وجداوله المتعرّجة التي تنساب مترقرقةً كأنّها الشرايينُ تحمل للأرض دمها المُحيي . كان الصيد متوافراً فيها ، والأماكن الصالحة للسباحة منثورة هنا وهناك ؛ وفي ثنايا الأعشاب التي نبتت على ضفاف تلك المجاري الضيّقة كانت الطيور كثيرة متعدّدة .

سرت خفيفاً كالماعز ، أنظر إلى كلبيَّ يسعيان أمامي في أثر الطريدة . وكان « سرفال » على بعدمئة متر إلى يميني ، يجدّ هو الآخر في سبيله ؛ درت حول الدَّغَل الذي يؤلّف حاشية حرج « ساندر » ،

وإذا بي أمام كوخ متهدم .

تذكّرته للحال ، كما شاهدته لأول مرّة عام ١٨٦٩ ، تكسوه العرائش ، وأمام عتبته دجاجاتٌ تنقُد الحبّ . ما من مشهد قطّ فيه من الكآبة ما في مشهد بيت مَيْت ، بهيكله الذي بقي قائماً ، وهو متداعٍ مشؤوم .

وتذكّرت أيضاً امرأة طيّبة قدّمت لي ذات يوم في داخل الكوخ كأس نبيذ منعش لذيذ ؛ وكان « سرفال » قد حدّثني يومذاك عن ساكنيه : فالأب الذي كان يتعاطى الصيد المحرَّم قد قتله رجال الدرك ؛ وكان الابن شابّاً طويل القامة ، صُلب العود ، يتمتّع هو الآخر بشهرة عريضة في إبادة الطرائد . وقد أطلق الناس على العائلة اسم « سوفاج » ، ويعني المتوحّشين .

ناديت « سرفال » فلحق بي بخطاه العريضة . سألته :

ـ ماذا حلّ بأصحاب هذا الكوخ ؟

فقصّ عليّ الحكاية التالية .

٢

يوم نَشِبت الحرب ، تطوّع الابن « سوفاج » للقتال ، وكان إذ ذاك في الثالثة والثلاثين من عمره ، مخلّفاً في المنزل أمّاً وحيدة قلقة . ولم يكترث الناس لمصيرها لعلمهم أنّها كانت تدّخر من المال ما يؤمّن لها كِفاف العيش .

بقيت الأمّ وحيدة في ذلك البيت المنعزل ، النائي عن القرية ، على حاشية الغابة . إلاّ أنّ عزلتها لم تكن لتُخيفها وهي من طينة الرجال : عجوز قاسية ، طويلة ، نحيلة القدّ ، لا تضحك إلاّ نادراً ، ولا تتيح لأحد مجالاً لممازحتها . إنّها لَمِثال الفلاّحة المجتهدة ؛ وإن خرج شريك حياتها يَنشُد التسلية في مقهى القرية بقيت وحيدة في المنزل ووجهها واجم مقطّب . فهي لم تَألف الضحك أو التسلية إطلاقاً .

تعاقبت الأيّام وحلّ شتاء آخر قاسٍ ، والأمّ « سوفاج » تعيش حياتها المعهودة في كوخها الذي كسته الثلوج . وكانت تذهب إلى القرية مرّةً كلّ أسبوع لشِراء الخبز واللحم ، ثمّ تعود مباشرةً إلى منزلها الحقير . كانت تحمل معها قبل مغادرتها الكوخَ بندقيّة ابنها العتيقة الصَّدِئة ، لعلمها أنّ الذئاب كانت تحوّم في المنطقة ، فيغدو منظر الأمّ « سوفاج » غريباً في تلك اللحظات ، وهي ماثلة بقامتها الفارعة ، وعلى رأسها قبّعتُها الضيّقة السوداء تلملم شعرها الأبيض الذي لم يقع عليه بصر إنسان، غير أهل بيتها .

وذاتَ يوم حطّ البروسيّون رَحلهم في المنطقة ، ففُرض على الأهلين إيواؤهم بالنسبة لموارد كلّ منهم وثروته ، فكان نصيب الأمّ « سوفاج » أربعة شبّان ذوي بَشرات بيضاء ، ولِحىً شقراء ، وعيون زرقاء ، بقيت في ملامحهم أمارات الصحّة والعافية مع ما كابدوه من تعب ، أربعة شبّان بقيت قلوبهم تطفح طِيبَةً حتى في الأرض المحتلّة تلك ؛ فراحوا يتودّدون



إلى الأمّ المُسنّة ، يكفونها مؤونة التعب والنفقات ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . في الصباح كانوا يغتسلون حول البئر ، مشمّرين عن زنودهم ، يداعب الماء جلودهم النضرة البيضاء ، فينعمون بالتسلية ردحاً من الوقت ، فيما تنصرف الأمّ « سوفاج» لتحضير الَحساء . ثم كانوا ينظّفون المطبخ ، ويمسحون الأرض ، ويقطعون الحطب ، ويقشِرون البطاطا ، ويغسِلون الثياب ، إلى ما هنالك من أعمال منزليّة يُنجزونها كاربعة أبناء صالحين يُحيطون بأمّهم الحنون .

بيد أنّ العجوز كانت تفكّر بابنها بلا انقطاع ، تفكّر بقامته المشوقة ، بأنفه المعقوف ، بعينيه السمراوين ، بشاربيه الكَثّين يعلوان شفته راسمين فوقها وسادةً من وَبَر أسود . وكانت كلَّ يوم تطرح على جنودها الأربعة السؤال نفسه :

ـ أتعلمون أين ذهب فوج المُشاة الفرنسيّ الثالث والعشرون ؟ إنّ ولدي جنديّ فيه .

فيجيب الجنود بلُكنتهم الفرنسيّة :

ـ كلاّ ، لا نعلم ، لا نعرف شيئاً .

كانوا يحترمون كآبتها وقلقها ، وهم الذين خلّفوا في بيوتهم البعيدة أمّهات مثلها ، فيُعنَون بها عناية فائقة . وكانت هي الأخرى تحبّ أعداءها الأربعة ، لأنّ الفلاّح لا يُفسح في قلبه مجالاً للأحقاد ، فهذا الأمر وَقْف على الطبقات العليا دون سواها . وأما العامة الذين يدفعون أبهظ الأثمان لأنّهم هم الفقراء ، وهم الذين ترهق كاهلَهم الفروضُ كافّة ، والذين يكابدون من الحرب أشنع ويلاتها لأنّهم أضعف الناس وأقلّهم مقاومة ، هؤلاء لا يفقهون لغليان الحروب معنى ، ولا للخطط السياسيّة التي ترهق في ستّة أشهر أمّتين كاملتين ، المنتصرة والمنهزمة على السواء .

كان الجميع يتحدثّون عن جنود الأمّ « سوفاج » الألمان ، فيقولون :

ـ أولئك الأربعة قد وجدوا مأواهم المنشود .

وذاتَ صباح ، بينما كانت الأمّ وحيدة في المنزل ،

أبصرت من بعيد رجلاً يتّجه نحو منزلها : إنّه ساعي البريد . سلّمها ورقة مطويّة ، فوضعت نظّارتيها ، ثم قرأت ما يلي : « إلى السيّدة « سوفاج » : إنّ هذه الرسالة تحمل إليك نبأ مفجعاً ؛ لقد قُتل ولدك « فكتور » البارحةَ إذ أصابته قذيفة شطرت جسده شطرين . وقد كنت إلى جانبه أُصغي إليه وهو يحدّثني عنك ، ووعدته بأن أكتب إليك من غير تأخير إذا ما لحق به أيّ أذى . ولقد أخذت ساعته من جيبه كي أعيدها لك بعد نهاية الحرب . وإليك منّي التعزية » .

أالجنديّ « سيزير ريفو » من فوج المشاة الثالث والعشرين .

وكان قد مضى على تاريخ الرسالة ثلاثة أسابيع .

لم تذرِف الأمّ « سوفاج » دمعة واحدة ، بل وقفت جامدة ، مذهولة ، مقبوضة الصدر ، حتى إنّها لم تشعر بالألم في بادىء الأمر . وقالت في قَرارتها : « ها إنّ « فكتور » قد قُتل هو أيضاً » . ثم اغرورقت

عيناها بالدمع شيئاً بعد شيء ، واجتاحت اللوعة قلبها دفعة واحدة ، وراحت الهواجس تعبُر مخيّلتها واحدة واحدة ، مروِّعة ، معذِّبة . لن تقبّل ولدها بعد اليوم ، لن تقبّل وحيدها أبداً . لقد قتل رجال الدرك الأب ، وقتل البروسيّون الابن ... لقد شطرته القذيفة شطرين ! وخُيّل لها أنّها تعيش ذلك الحادث المروِّع : الرأس وهو يميل بلا حياة ، والعينان الجاحظتان ، والشفتان تلوكان طرف الشارب المتدلّي كما كانتا تفعلان في ساعات الغضب .

وماذا حلّ بالجثّة يا ترى ؟ آه ! لو أنّهم على الأقلّ يعيدون إليها وحيدها ، كما أعادوا زوجها من قبل وقد اخترقت جبينَه رصاصةٌ قاتلة .

وسمعت الأمّ لَغَط البروسيّين الذين كانوا عائدين من القرية ؛ إستقبلتهم بهدوء بعدما تمالكت نفسَها ، وبعدما دسّت الرسالة في جيبها ، ومسحت عن عينيها آثار الدموع .

كان الأربعة يقهقهون عالياً وقد غمرتهم النشوة ،

وهم يحملون أرنباً قد سرقوها ولا ريب ، وراحوا يشيرون إلى العجوز بأنّ طعامهم سيكون لذيذاً .

عكفت الأمّ « سوفاج » من غير توانٍ على تحضير الطعام . إلاّ أنّها توقّفت مذعورة حين همّت بذبح الأرنب ، مع أنّ تلك الأرنب لم تكن أوّل أرنب تذبحها ! وأتى أحد الجنود فسدّد إلى الحيوان المسكين ضربة من قبضته أطاحت حياته .

وسلخت الأمّ الحيوان الصغير ، ولكنّ رؤية الدم الذي كان يغطّي يديها ، ذلك الدم الدافىء الذي راح يبرد ويتخثّر ، بعثت الرِّعشة فيها من رأسها إلى أخمص قدميها ؛ فقد تخيّلت ولدها ، بجسده المشطور ، يتخبّط في دمه كذاك الحيوان الذي ما زال دافئاً بين يديها .

وجلست مع بروسيّيها إلى المائدة ، إلاّ أنّها لم تذق لقمة واحدة . وأمّا هم فقد التهموا الأرنب من غير أن يكترثوا لها . وراحت تنظر إليهم شَزْراً ،

وفي رأسها فكرةٌ تختمر ، وملامحها جامدة كالصخر ، فلم يخامر الجنودَ الأربعة أيّ ارتياب .

وسالت الأمّ « سوفاج » فجأة :

ـ أنا لا أعرف أسماءكم قط ، وقـد مضى على وجودنا معاً شهر كامل .

وفهم الجنود رغبتها بعـد لأي ، فادلى كلّ منهم باسمه . ولكنّها لم تكتفِ بهذا القَدْر ، فاستكتبتهم أسماءهم على ورقة ، مع عناوين عائلاتهم . وبعدمـا ألقت على تلـك الخطوط الغريبة نظرةً خاطفة من خلال نظّارتيها ، دسّت الورقة في جيبها فوق الكتاب الذي نَعى إليها ولدها .

قالت للجنود بعد تناولهم الطعام :

ـ سأنصرف الآن لأرتّب بعض أموركم .

وراحت تكدّس التّبن في العلّيّة التي ينامون فيها .

دهش الجنود لهذه البادرة ، ولكنّها طمانتهم إلى

أنّ التبن سيُدفىء أجسادهم ، فمدّوا إليها يد العون . وتعالت أكداس التـبن حتى بلغت سقف العلّيّة المصنوع من القشّ اليابس ، فإذا بعلّيتهم غرفةٌ كبيرة ذات جدران من العَلَف أربعـة ، دافئة عَطِرة ، يحلو فيها النوم !

وخلال العشاء قلق أحد الجنود لدى رؤيته الأمّ « سوفاج » وقد رغبت عن الطعام كما في الوجبـة السابقة ، مدّعية أنّها تعاني آلاماً في معدتها . ثمّ أوقدت الأمّ ناراً للتدفئة ، وتسلّق الألمان الأربعة السُّلَّم إلى مَضْجَعهم ليناموا .

وما إن أغلقوا الباب حتى نحّت العجوز السلّم، ثمّ فتحت الباب الخارجيّ وراحت تنقل حُزَماً من القشّ ملأت بها مطبخها . كانت تغدو فوق الثلج حافيةَ القدمين ، بحذر كثير ، فلم تُحدث خطاها حسّاً ولو خافتـاً . ومن وقت لآخر كانت تصغي إلى غَطيط الجنود الأربعة النائمين .

وبعدما أيقنت أنّ الاستعداد بات كافياً ، تناولت

حزمة قشّ وأضرمت فيها النار ، ونثرتها على الحزم الأخرى ، ثمّ خرجت وراحت تنظر محدّقة .

وفي بضع ثوانٍ اجتاح الكوخَ من الداخل نورٌ وهّاج ، ما لبث أن غـدا جمرة متوقّدة ، وفرناً كبيراً متأجّجاً انبعث نوره من النافذة الضيّقة فبسط على الثلج أشعّة برّاقة .

وانطلقت من المنزل صيحةٌ عالية ، تحوّلت بعد آنٍ إلى لغط من عويل بشريّ ، وتعالت استغاثات خنق نبراتِها الألمُ المبرّح والرّوع الشديد . ثمّ اجتاحت العلّيّةَ زوبعةٌ ناريّة ثقبت سقف القشّ ، وتصاعدت نحو السماء كلسان مَشعل كبير ، وإذا بالكوخ كلّه أتّونُ لهَب .

وخمدت الأنفاس من الداخل ، فلم يُسمع بعدُ غيرُ زفير الحريق ، واصطكاك الجدران ، وتساقط الأعمدة الخشبيّة . وانهار السقف انهياراً تامّاً ، وبقي الهيكل المتلظّي ينفث في الهواء سحابةَ شرر طويلة ، وسط غمامة كثيفة من الدخان .

وانعكست أشعّة النار على بساط الثلج الأبيض فراحت الأرض تلمع وكأنّها الفضّة قد طُليت ذهباً .

ودق جرس كنيسة في البعيد .

بقيت الأمّ « سوفاج » منتصبة أمام مَسكَنها المهدوم ، وفي يدها بندقيّتها مخافةَ أن ينجو من الحريق واحدٌ من الجنود الأربعة .

وبعدما تأكّدت أنّ كل شيء قد انتهى ، ألقت ببندقيّتها في النار ، فاشتعلت ذخيرتها وتفجّرت .

أقبل الناس على موضع الحريق ، فوجدوا المرأة جالسة إلى جِذع شجرة ، آمنةً راضية .

ـ سألها ضابط بروسي بلهجة فرنسيّة طَلْقة :

ـ أين جنودك ؟

فمدّت يدها الضعيفة مشيرة إلى رُكام الحريق الأحمر الذي بدأ يخمُد ، وأجابت بصوت ثابت :

ـ هناك ، في الداخل .

وتجمّع الناس من حولها ، وسألها البروسيّ :

ـ وكيف اندلعت النار ؟

فاجابت بهدوء :

ـ أنا أشعلتها .

لم يصدّقها أحد . وظنّ الحاضرون أنّ الكارثة قد أفقدتها صوابها . وأمّا هي فقد راحت تقصّ عليهم تفاصيل الحادثة ، من أوّلها إلى آخرها ، منذ أن تلقّت الرسالة حتى آخر صيحة انطلقت من الرجال الذين هلَكوا في الحريق . ولم تهمل تفصيلاً واحداً ممّا فعلته أو أحسّت به .

فرغت الأمّ المنتقمة من كلامها وتناولت من جيبها ورقتين مطويّتين ، فتفحّصتها على أشعّة النار المتلاشية بعدما ركّزت نظّارتيها ، ثمّ قالت وهي تشير إلى إحداهما :

ـ هذه هي الورقة التي حملت إليّ نبأ مقتل

« فكتور »...

ثمّ تناولت الثانية فقالت وهي تومىء برأسها مشيرة إلى الأنقاض الحمراء :

ـ وهذه الورقة تحمل أسماءهم ، فانقلُوا الخبر إلى ذويهم .

وبهدوء تامّ وضعت الورقة بين يدَي الضابط الذي أمسك بكتفيها ، ثم أردفت :

ـ أرجو أن تصف الحادث كما وقع ، وأن تقول لوالِديهم إنّني أنا صاحبته ، أنا « فكتوار سيمون سوفاج » . لا تنسَ !..

وأصدر الضابط بعض الأوامر بالألمانيّة ، فسِيقت الأمّ إلى أحد جدران المنزل الذي كان ما يزال حارّاً كالجمر . واصطفّ اثنا عشرَ رجلاً قُبالتَها ، على بعد عشرين متراً ، فلم تحرّك ساكناً . لقد فهمت ، ووقفت تنتظر .

وانطلق من الضابط أمر سريع ، أعقبته طلقات

قوّية . ثم دوّت رصاصة متأخّرة . لم تسقط العجوز ، بل هَوَت وكأنّ ساقيها قد حُصدتا من تحتها .

تقدّم الضابط البروسيّ منهـــا . كانت جثّتها مشطورة شطرين تقريباً ، وقد شدّت رسالتها في يدها المتشنّجة المضرّجة بدمائها .

*

وأضاف « سرفال » يقول :

ـ لقد دمّر الألمان قصري على أثر ذلك ، عِبرةً وعقاباً .

أمّا أنا فرحت أفكّر بأمّهات أولئك الشبّان الطيّبين الأربعة الذين احترقوا داخل الكوخ ، وبعمل الأمّ الأخرى التي أُعدمت إلى ذلك الجدار .

إلتقطت حجراً صغيراً بقيت عليه آثار من النار سوداءُ ، ورحت أنظر إليه متأمّلاً .

ألذِّئب

كان المدعوُّون جميعاً قد اصطادوا وَعَلاً خلالَ النهار ، ما عـــدا المركيز العجوز « دارفيل » الذي لم يشارك بالمطاردة ، والذي لم يكن يتعـاطى القَنْص إطلاقاً .

وخلال مَأدُبة العشاء الكبيرة ، دار الحديث على مَجازر الحيوانات دون أيّ موضوع آخر . وكانت النساء أنفسهنّ يُولين اهتمامهنّ تلك الحكاياتِ الدمويّةَ ، وكان المتكلّمون يمثّلون بالإيماء صولات الرجال وقتالهم ضدّ الطرائد ، يحرّكون أيديهم ، ونبراتُ أصواتهم ترتفع رنّانة .

كان المركيز « دارفيل » خطيباً مبدِعاً ، تُداخل كلامَه شاعريّة مزخرفة ساحرة في آن معاً . فهو ولا ريب قد سرد قصصه تكراراً ، ولذلك تراه يجيد في كلّ مرّة سردها ، فلا يتردّد ، ولا يتعثّر بالكلام الذي ينتقيه بإتقان لوصف المشاهد الحيّة ، وعقب انتهاء العشاء قصّ علينا المركيز السّالفة التالية :

ـ أيّها السادة ، أنا لم اصطد مرّة واحدة في حياتي ، كما إنّ أبي وجدّي وجدّ جدّي لم يمارسوا الصيد هم الآخرون . وكان جدّ جدّي ابناً لرجل اصطاد من الحيوانات البرّية أضعاف ما تصطادون أنتم مجتمعين . وساروي لكم كيف مات .

كان يدعى « جان » ، وكان أباً لذاك الابن الذي كان جدّ جدّي ، وكان يسكن مع أخيه الأصغر « فرانسوا دارفيل » قصر العائلة في « اللورين » ، في قلب الغابة .

ولم يتزوّج « فرانسوا دارفيل » ، بقي عزَ اً لأن

الصيد كان يملك عليه حبّه ولبّه .

كان الأخوان « دارفيل » يصطادان معاً من أوّل السنة إلى آخرها ، من غير راحة أو توقّف أو وَهَن . لم يحبّا شيئاً غير ذلك ، ولم يُلمّا بأي أمر آخر ، فكانا لا يتحدّثان إلاّ عن الصيد ، ولا يعيشان إلاّ به .

كان يلهب حواسّهما ذلك الهوى العنيف المتصلّب الذي تأجّج في أعماقهما ، فاجتاح كلاًّ منهما واحتلّ في قرارته المكانةَ المطلقة الفريدة .

وقد أمر الشقيقان في ذلك الزمان ألاّ يضايقهما أحد عند خروجهما إلى الصيد ، مهما كانت الأسباب . وقد أبصر جدّ جدّي النور فيما كان والده يجدّ في أثر ثعلب ، وقد رُوي أنّ « جان دارفيل » لم يتوقّف حينئذ عن المطاردة ، بل صاح حانقاً : « ألم يكن باستطاعة هذا اللّعين أن يولَد بعد رجوعنا من الصيد » ؟

وكان شقيقه « فرنسوا » أكثر منه اندفاعاً وحماسة في الصيد ؛ فمنذ طلوع الفجر كان يخرج لتفقّد الكلاب والخيل ، ومن ثمّ كان يدور حول القصر فيصطاد العصافير ريثما يحين موعد الانطلاق لاصطياد الطرائد الكبيرة .

وقد أطلق عليهم سكّان المنطقة اسم « السيّد المركيز » و « السيّد الأصغر » ، إذ إنّ ألقاب النبل في ذلك الوقت لم تكن لتلحق بأفراد العائلة أجمعين ، ولم تكن بالتالي وراثيّة شأن الألقاب التي يتوارثها البنون عن الآباء في أيّامنا هذه .

ويبدو أنّهما كانا فارعَي القامة ، نحيلي العود ، أشعَرين ، عنيفَي الطباع، قويي البِنية. وأمّا الأصغر، الذي كان أفرع قامةً من أخيه ، فكان يتميّز بصوت جَهْوَرِيّ ، رنّان ؛ ويقال إنّه كان فخوراً بصوته الذي كان يجعل أوراق الأشجار ترتعد لدى انطلاقه من حنجرته !

وعندما كان الشقيقان يركبان جواديهما للذهاب إلى الصيد، كان مشهدهما رائعاً للغاية ، إذ يبدوان كالعملاقين في استقامتهما على مطيّتيهما الأصيلتين .

واتّفق أن اجتاحت المنطقةَ ، في أواسط الشتاء من سنة ١٧٦٤ ، موجةٌ من البرد لم يُعرف لها مثيل ؛ فغدت الذئاب ضارية ، تهاجم الفلاّحين المتأخّرين ، وتحوم ليلاً حول المنازل ، تعوي من حلول الليل حتى طلوع الفجر ، وتعيث في الإسطبلات فساداً .

وبعد مدّة سرت شائعة على ألسنة الأهلين ؛ راحوا يتحدّثون عن ذئب عملاق ، ذي وَبَر أغبرَ مائل إلى بياض ، كان قد افترس طفلين ، والتهم ذراع امرأة ، وخنق كلاب الحراسة في المنطقة كلّها . كان يدخل إلى الحظائر بجرأة فائقة ، ويجول حول المنازل يستشمّ على عتباتها . وقد اعترف الأهلون جميعاً بأنّهم قد أحسّوا بلهاثه القويّ يبلغ أحياناً ضوء المصابيح فيكاد يطفئها . ولم يمضِ على تلك الشائعة زمان وجيز حتى اجتاح المقاطعةَ رُعبٌ قاتل . لم

يبقَ أحد يجرؤ على مغادرة منزله بعد حلول الظلام ، فكأنّ صورة ذلك الوحش كانت تهيمن على الدياجير كشبح من أشباح العفاريت .

واعتزم الأخوان « دارفيل » العثورَ على ذلك الذئب الجبّار والقضاء عليه . وفي هذا السبيل دَعَوَا إلى الرحلات التي نظّماها نبلاء المنطقة أجمعين .

بيد أنّ المساعي ذهبت أدراج الرياح . لم تُترك بقعة من الغابات ، ولا زاوية من الأدغال ، إلاّ جرى التفتيش فيها بدقّة وإمعان ، ولكنّ الصيّادين لم يجدوا للوحش أثراً . لقد قتلوا في رحلاتهم ذئاباً عديدة ، ولكنّ الذئب الوحش لم يكن في عِدادها . ففي كلّ ليلة ، بعد عودة الصيّادين إلى منازلهم ، كان الوحش يهاجم القطعان ، بعيداً عن المكان الذي يجري فيه البحث عنه ، وكأنّه يَروم في ذلك انتقاماً من الصيّادين الذين كانوا يفتِكون ببني جنسه .

وذاتَ ليلة هاجم الذئب حظيرة الخنازير في قصر « دارفيل » ، وافترس أسمن خنزيرين فيها .

وشبّت نار الغضب في قلب الشقيقين ، وقد اعتبرا أنّ ما حدث إنّما كان إهانة لهما ، وشتيمةً مباشرة ، وتحدّياً سافراً يتعمّده الوحش عابثاً ؛ فأعدّا كامل العُدَّة ، واختارا من بين الكلاب أكثرَها مقدرةً على مطاردة الوحوش الضارية ، وانطلقا إلى الصيد وفي القلب منهما نار سُخط متأجّجة .

ومنذ الفجر إلى ساعةَ آذنت الشمس بالمغيب جاب الشقيقان الغابات والأدغال من غير أن يقعا على أثر للوحش ؛ فعادا أخيراً حانقَين يائسين ، وقد أخذتهما فجاة مخافةٌ مبهمة من ذلك الذئب الذي كان يحبط حيلتهما وكأنّه عالم بنيّاتهما في كلّ حين .

ـ ليس هذا الحيوان كالأُخر . فكأنّي به يفكّر كما يفكّر الآدميون .

وأجاب الأخ الأصغر :

ـ يجدر بنا أن نطلب من ابن عمّنا المطران أن يبارك رصاص بنادقنا ، أو أن نقيم الصلاة ؛

فلربَّما كان هذا الأمر ذا جدوى .

ثم عاد كلّ منهما إلى صمته .

وأردف « جان » بعد برهة :

ـ أُنظرْ إلى الشمس في احمرارها العجيب . فالويل لمن يلتقي الذئبَ الكبير هذه الليلة .

ولم يكد يفرَغ من كلامه حتى شبَّ جواده مرتاعاً ، وراح جواد « فرانسوا » يثب ويضرب الأرض بقائمتيه . فقد انفرجت أمامهما كُتلةٌ من شُجيرات غضّة تكتنفها الأوراق الميتة ، وإذا بحيوان ضخم ينطلق من ثناياها ، ويعدو في قلب الغابة بسرعة فائقة .

صاح الاثنان معاً صيحة فرح مدوّية ، وأطلق كلّ منهما عِنان جواده وهو يحُثّه بالصياح والحركة والمِهماز ، فانطلق الجوادان بهما كالريح .

واستمرّا في مطاردتهما يعبُران الغابة ، ويهبِطان

الوِهاد ، ويتسنّمان التلال ، ويجتازان الفِجاج ، وهما ينفُخان في البوق لدعوة الأتباع والكلاب .

وفي غمرة هذا السّباق الهائم الخطير اصطدم رأس جدّي بغصن شجرة كبير متدلّ ، فانشقّت جمجمته ، وسقط على الأرض ميتاً ، فيما استمرّ الجواد في عَدْوه يجتاح الظلال التي أخذت توشّح أشجار الغاب .

وتوقّف الأخ « دارفيل » الأصغر وأسرع إلى مكان الحادث ، فأخذ أخاه بين يديه ، فوجد أنّ رأسه كان ينزف دماً غزيراً . عندئذٍ جلس بالقرب من الجُثّة وأسند رأسها إلى رُكبته ، وراح يُنعم النظر في وجه شقيقه الأكبر الذي جمَدت قسَماته . وفي غضون ثوانٍ قليلة بدأ الخوف يتسرَّب إليه ، خوفٌ غريب لم يكن قد شعر به من قبلُ ، خوف من الظلال ، خوف من الوَحدة ، خوف من الغابة القاحلة ، وأكثر من ذلك كلّه ، خوفٌ من ذلك الذئب الأُسطوريّ الذي قتل أخاه .

وازدادت الظلمة حُلوكاً ، وأخذت أوصال الأشجار

تصطكّ تحت وطأة البرد ؛ فنهض « فرانسوا » من
مكانه ، وهو يشعر بأنّه سيتلاشى . وكانت الأبواق
قد همَدت ، وغاب عن مسمعه نُباحُ الكلاب في الأفق
البعيد . كان ذلك الصمت الرهيب ، في تلك العشيّة
الجليديّة ، يهُزّه بتيّار من الذّعر والرهبة .

أخذ بين يديه القويّتين جثّة « جان » الكبيرة ،
ووضعها على السّرج لحملها إلى القصر . وبعد ذلك سار
بخطى وئيدة ، وأفكارُه مضطربة كما لو كان ثملاً ،
تغزو مخيّلَته صورٌ رهيبة لا عهدَ له بها .

ولكنْ ، فجأةً ، برز من خلال الظلمة التي كانت
تغطّي الممرّ في الغابة طيفٌ كبير . إنّه الوحش
عينُه ! فسرت في أعضاء الصيّاد رِعدةُ خوف طويلة،
وتصبّب من بدنه عرقٌ بارد ؛ فرسم إشارة الصليب
كأنّه يريد طرد روح شرّيرة ، وقد أذهلته عودة
السفّاح بتلك الصورة المفاجئة . بيد أن عينيه وقعتا
على الجسد الهامد المسجّى أمامه ، فتحوّل ذعره إلى
سخط عنيف ، وحلّت في جسده قُشَعْريرةُ الحقد .

عندئذٍ نخَز جواده بمهازيه وانطلق كالشّهاب وراء
الذئب . وراح يطارده بين الأشجار الملتفّة ، عابراً
مجاري السيول ، مجتازاً أحراجاً بعيدة ، وعينُه مسمّرة
إلى تلك البُقعة البيضاء السريعة التي كانت تعدو
أمامه هاربةً في الليل الحالك .

وكأنّي بالجواد كان ينبِض في تلك اللحظة بقوّة
وَحزم جديدين ، فراح يعدو بسرعة ، وهو يصطدم
بالأشجار وبالصخور ، ورأس القتيل ورجلاه متدلّية
من ناحيتَي السرج . كانت الأشواك تنتزع من الجثّة
شعراً دامياً ، وكان الرأس في ارتطامه يلوّث الأشجار
بدمه ، وكان المهازان ينتزعان من الجُذوع خِرَقاً
كبيرة .

وخرج الذئب من الغابة وولج وَهداً صغيراً ،
والفاربُ في أعقابه . وكان القمر في أوّل طلوعه من
وراء القمم . كان ذلك الوهد ممرّاً ضيّقاً حَجِراً تسدّه
صخور عالية ، لا مخرَج له البتّة . وعلم الذئب أنّه
قد وقع في الفَخّ ، فتوقّف واستدار .

أطلق « فرانسوا » عندئذ صيحة فرح مرعدة ردّدت الصخور صداها ، ووثب إلى الأرض وفي يده سيفُ صيد قصيرٌ عريض .

وقف الذئب ينتظره مقوّس الظهر ، وعيناه برّاقتان كنجمتين . وقبل أن يخوض الصيّاد القويّ قتاله ، حمل جثّة أخيه وأسندها إلى صخرة ، وجعل الرأس ، الذي غدا بقعة واسعة من دمٍ ، فوق بعض الحجارة ، وصاح في أذنه كما لو كان أصمّ :

ـ أنظر يا « جان » ! أنظر إلى هذا !

ثمّ انقضّ على الوحش . كان يحسّ بقدرة على زحزحة الجبال وعلى طحن الصخور بقبضتيه . وأراد الذئب أن ينهشه ، وحاول أن يبقَر بطنه بأنيابه ، ولكنّ الصيّاد أمسك بخناقه ، فراح يخنقُه ببطء ، بعدما ترك سلاحه ، وهو يُصغي إلى أنفاس الوحش تتلاشى ، ودقّات قلبه تهمُد ، شيئاً بعد شيء . وكان يضحك مقهقهاً ، في نشوة لا توصف ، وضغطه يزداد أكثرَ فأكثر ، وهو يردّد في هَذَيان غبطته :



« أنظر يا جان ! أنظر ! »

وكفّ الذئب عن المقاومـــة ، وتراخت أعضاؤه . لقد مات !

نهض « فرانسوا » ، فحمل الذئب الميت بكلتا يديه وطرحه عند قدَمي شقيقه البكر وهـــو يقول بصوت غصّت نبراته بالحبّ والحنان : « خذ يا أخي ، هـــل تراه ؟ ! » ثمّ وضع الجثّتين على السّرج ، الواحدةَ فوق الأخرى ، وعاد أدراجه نحو القصر .

دخل القصر وهو يضحك ويبكي ، تارةً يطلق صيحات النصر والبهجة في حديثه عن مقتل الوحش ، وطوراً ينتِف لحيته ويئنّ في وصفه مقتلَ أخيه .

وفيما بعد ، حين كان ياتي على ذكر ذلك اليوم المشؤوم ، كان يقول والدمع يترقرق في عينَيه :

ـ آه ! لو أنّ أخي « جان » استطاع أن ينظر إليّ وأنا أخنق الوحش بيديّ ، لكان قد فارق الحياة آمناً مطمئنّاً .

وأمّا أرملة جدي فقد بثّت في نفس ابنها اليتيم بغض الصيد ، فتناقله الآباء والبنون إلى أن وصل إليّ » .

★

وتوقّف المركيز « دارفيل » صامتاً . وساله أحدهم :

ـ هذه القصّة أسطورة ، أليست كذلك ؟

وأجاب القصّاص :

ـ إني أقسم لك بأنّها حقيقيّة من اولها إلى آخرها .

مغامرة "فالتر شنافز"

منذ أن دخل « فالتر شنافز » إلى « فرنسا » في الجيش ، كان يحسَب نفسه أشقى المخلوقات إطلاقا ؛ فهو بَدين ، يتحرّك بعَناء ، يلهَث بكثرة ، ويعاني على الدوام آلاماً مبرّحة في قدميه المسطّحتين الغليظتين . وهو ، فضلاً عن ذلك ، مُسالم عَطوف ، لا هو بالهُمام ولا بالدّمويّ ، له من البنين أربعةٌ يحبّهم حبّ العبادة ، متزوّج بامرأة حسناء لا ينفك يفكّر بها في كلّ لحظة . كان يحبّ التّضحّي والنوم باكراً في المساء ، وتذوُّق المآكل الشهيّة ، وتناوُل الجعة في الخمّارات . وهو يعلم كذلك أنّ كلّ ذي

عذوبة في الوجود يزول مع الحياة الفانية . وعلى
هذا الأساس كان يكُنّ حقداً غريزيّاً ، متعقّلاً ،
للمدافع والبنادق والمسدَّسات والسيوف ، وللحراب
بخاصّة ، تلك الأسنَّة السريعة التي كان يعجز عن
استخدامها للدفاع عن كَرِشه المنفوخة .

عند المساء ،حين كان يَفترش الأرض ملتفّاً بِمعطفه
إلى جانب رفقائه الغاطّين ، كان يفكّر طويلاً
بعائلته وبالمهالك التي تعترض سبيله : « ماذا يحِل
بالصغار إذا قُتلت ؟ ترى ، من يسهر على إعالتهم
وتربيتهم ؟ » لم تكن لهم أيّة ثروة ثابتة ، مع أنّه
حاول قبل رحيله أن يؤمّن لهم مورداً للعيش .
وكثيراً ما كان يجد نفسه في ظروف كهذه يذرف
دمعاً سخيّاً .

في مستهلّ القتال كان دائماً يشعر بالضعف يعتري
ساقيه ، حتى إنّه كان يفكّر بالانبطاح أرضاً متخلّفاً
عن الجنود الباقين ؛ وكان بدنه يقشعرّ في كلّ مرّة
يسمع فيها أزيز الرصاص . وها إنّه يعيش على هذا

النَّمط لشهور عديدة خلَت ، في غَمْرة الجزَع
والقلق .

كان فيلقه يتقدّم باتّجاه « نورمانديا » ؛ وذات
يوم أرسل « فالتر شنافز » في مهمّة استطلاع في مفرزة
صغيرة . كان الريف هادئاً ، وليس ثمّة من دليل ينبىء
بمقاومة وشيكة . وفيما كان البروسيّون ينحدرون
بأمانٍ عبر وادٍ ضيّق تتخلّله شِعاب سحيقة، فاجأتهم
طلقاتٌ حامية كَبَحت جِماحهم وجندلت ما يقارب
العشرين منهم . ثمّ انقضّ عليهم فريق من المناوشين
خرجوا فجأة من غابة صغيرة وحرابهم في رؤوس
بنادقهم .

بقي « فالتر شنافز » هامداً بادىء الأمر ، وطغى
الوَلَه عليه فافقده كلَّ عزم على الهرب . ثمّ تملّكته
رغبة جامحة في العدْو والفِرار ، ولكنّه كان يعلم أنّه
كالسُلَحفاة إذا ما قُورن بأولئك الفرنسيّين الخِفاف
الذين يثبون كالماعز . وما لبث أن أبصر على قيد
خُطوات منه حفرةً عريضة يكتنفها نبات معرّش ،



وتغطّيها أوراق الشجر الجافّة، فاندفع صوبها وألقى بنفسه فيها غيرَ مُبالٍ بعمقها، كما يقفز أحدهم إلى نهر من فوق جسر.

وفي مرحلة هبوطه القصيرة مرّ كالسهم عبر كُتلة نباتيّة كَثّة من الجذور والعلّيق الحادّ، فتخدّش وجهه ويداه، ثمّ استقرّ على فراش صُلب من الحجارة.

رفع عينيه إلى فوق فبَصُر بالسماء من خلال الثُّغْرة التي ابتلعته. وإذ كان الثّقب جديراً بإفشاء سرّه، راح يحبو إلى أعماق جُحره متستّراً بالأغصان المتشابكة، مبتعداً ما استطاع عن موضع القتال. ثمّ توقّف ثانيةً، وعاد إلى الجلوس، وقد أقام بين الأعشاب العالية كالأرنب البرّيّة.

وبلغته مَعْمعَة القتال بعد ذلك فترةً وجيزة، وفيها الصراخُ والأَنين وإطلاق الرصاص. ثمّ تضاءل لَغَط المعركة حتى تلاشى كليّاً، وعادت الطبيعة إلى صمتها وهدوئها.

وشعر « فالتر شنافز » بجسّ قريب ، فانتفض مرتاعاً ، ولكنّه لم يرَ غير طائر صغير حطّ على أحد الأغصان فارتعشت الأوراق من لمسه ؛ وبقيت نبضات قلب « فالتر شنافز » تدقّ كالطبل ساعة كاملة من جرّاء تلك الصدمة !

أقبل الليل يرخي على الوَهْد سُدوله ؛ وغرق الجندي في تفكير عميق : ماذا يفعل يا ترى ؟ ماذا سيحلّ به ؟ هل يعود إلى فرقته ؟ وكيف يكون ذلك ؟ ومن أي طريق ؟ وهَبْه فعل ذلك ، فأيّ مصير عساه يلاقي ؟ فلسوف يعود إلى حياة القلق والذُّعر والتعب والعذاب ، تلك الحياة التي عاشها منذ بداية الحرب ! كلاّ ! فشجاعته لن تمكّنه من ذلك بعد اليوم ، وعزمه لن يصمُد في الرحلات التي تحِفّ بها أخطار من كلّ نوع :

ما العمل إذاً ؟ فهو لا يستطيع الاختباء في ذلك الجُحر حتى نهاية الحرب . ولو لم يكن ضروريّاً أن

يأكل لما هاله مثل هذا الأمر ؛ ولكن لا بدّ أن يأكل كلّ يوم .

وهكذا قبع « فالتر شنافز » منعزلاً ، مدجّجاً بالسلاح في بزّته العسكريّة فوق أرض العدوّ ، بعيداً عن أولئك الذين يمكنهم الدفاع عنه ؛ فاصطفقت أوصاله رعشةً .

وبدت له فجاةً فكرة طريفة : « كم أتمنّى لو أكون أسيراً ! » واختلج فؤاده شوقاً الى الاستسلام للفرنسيّين . أسير ! فإذا تمّ له ما يريد ، سيجد الغِذاء والماوى في مأمَن من الرصاص والسيوف والخوف ، في سجن مريح مُحكَم الحراسة . أسير ؟ يا له من حُلم جميل ! واتخذ قراره للحال : « سأكون أسيراً ! »

نهض وفي نيّته تنفيذ قراره لساعته ، إلاّ أنّه بقي جامداً وقد خامرته فجاة أفكارٌ سوداء ومخاوفُ جديدة : « أين يستسلم ؟ وكيف ؟ وإلى أين يتّجه ؟ » وإذ ذاك تعاقبت في مخيّلته صور رهيبة ، صورُ الموت .

فهو سيتعرّض للأهوال إذا ما هام على وجهه وحيداً في مَتاهات الريف . وهَبْه التقى بعض الفلاّحين ؟ إن أبصر الفلاّحون هذا البروسيّ التائه ، هذا البروسيّ الضعيف ، فسيقتلونه كما يقتلون كلباً مسعوراً ! سيُجهزون عليه بمَذاريهم ومعاولهم ومناجلهم ومجارفهم ! ولسوف يطحنونه طحناً بما يُوغر صدورهم من نقمة الهزيمة .

وماذا يحدث لو أنّه التقى بعض المُناوشين ؟ إنّهم لا يخضعون لنظام أو لانضباط ، فهم ولا ريب يُعدمونه رمياً بالرصاص على سبيل التسلية ، ليسخروا من ارتعاده وخوفه . وتخيّل نفسه مُسنَداً إلى أحد الجدران تُحدِق به فوهات اثنتي عَشْرَةَ بندقيّة !

وماذا يحدث لو أنّه التقى الجيش الفرنسيّ النظاميّ ؟ فقد يعتقد رجال المقدّمات أنه أحد الكشّافين ، أو أحد الشّجعان البارعين ذهب منفرداً للاستطلاع ،وسيطلقون النار عليه . وراحت مخيّلته تبثّ له صور الحادث : رأى الجنود منبطحين بين

الأعشاب وهم يطلقون عليه النار ، وخُيّل إليه أنّه يسمع دويّ الرصاص ، فيما سقط وقد ثقبت جسدَه إصاباتٌ عديدة جعلته شبيهاً بالمصفاة .

وعاد فجلس واليأس يتآكّل قلبه . لقد بدا له الوضع مَأزِقاً لا مَخرَج منه .

كان الليل قد حلّ تماماً ، حالكَ السواد ، هادئاً ، صامتاً . واستسلم « فالتر » إلى السكينة ، إلاّ أنّ انتفاضات كانت تكهرب حواسّه كلّما سمع حفيفاً خفيّاً مبهَماً يعبُر الدَّياجير بين الفينة والأخرى . وكان نَعيق البُوم يمزّق صدره ، فيزيد من ذعره واضطرابه . وجحَظت عيناه وهو يُجيل الطَّرْف في الظلمة ، فقد كان يظنّ في وسواسه أنّه يسمع وقع أقدام على مقربة منه .

وأمضى « فالتر » ساعات طويلة في غمرة القلق الرهيب ، ثمّ نظر فرأى السماء من خلال الأغصان ، وقد وشّحها النور . عندئذٍ شعر بارتياح لا حدّ له ، فهدأت أعصابه وتراخت ، واطمانّ قلبه ، فتثاقل

جفناه ، وغمَضَت عيناه ، فاستسلم لسُبات عميق .

حين أفاق كانت الشمس قد استقرَّت في كبد السماء . فالوقت إذاً ظُهر . لم يكن أيّ حسٍّ يعكّر صفو الحقول الكئيبة . وشعر « فالتر شنافز » أنّ جوعاً حادّاً قد حلَّ في أحشائه . وسال اللُّعاب من فمه بمجرَّد تفكيره بالنَّقانِق اللذيذة التي تُقدَّم للجنود ، فازداد به الجوع وطأةً .

نهض من مكانه وخطا بضع خطوات ، فتخاذلت ساقاه ، فعاد إلى مكانه يفكّر . وبقي هكذا وقتاً طويلاً يستعرض الحلول ولا يستقرّ على رأي . كان شقيّاً مُثقَلاً بالهمّ تتجاذبه تيَّارات عديدة متناقضة .

ولاحت له فكرة ظنَّ أنَّها منطقيّة وعمليّة : سيترقَّب مرور قرويّ منفرد أعزل من السلاح ، ولسوف يهرع إليه ويحاول إقناعه بتسليمه للفرنسيّين .

خلع « فالتر » خوذته ومدّ رأسه من خلال الجُحر بكثير من الحَذَر . لم يكن هنالك أيّ إنسان قط .

ولكنْ تراءى له في البعيد قصر كبير ذو أبراج عالية .

وتريّث الجنديّ حتى المساء وهو يعاني آلاماً رهيبة ، لا يرى غير الغربان ، ولا يسمع غير أنين أحشائه الخاوية .

وعاد الليل فهبط بسواده الثقيل ، فتمدّد في قاع ملجئه ونام نوماً محموماً ، نومَ رجل يتضوّر جوعاً .

وطلع الفجر عليه من جديد ، فعاد إلى مركز مراقبته . كان الريف مُقفراً كما في الليلة الماضية . وإذا بخوف جديد ينتابه : خوف الموت من الجوع ! فتخيّل أنّه مسجّى على ظهره في جحره وعيناه مغلَقتان ، ورأى حشرات صغيرة مختلفة الأشكال تقترب منه فتتسلّل تحت ثيابه لتنهش جلده البارد ، فيما راح غراب كبير ينقُد عينيه بمِنقاره الحادّ !

وجُنّ جنونه ، ظانّاً أنّه سيُغمى عليه من شدّة الضعف ، وأنّه لن يَقوى بعدُ على السير . وإذ تأهّب

للانطلاق نحو القرية أبصر ثلاثة فلاّحين منصرفين إلى الحقول ومذاريهم على أكتافهم ، فغاص في مخبئه .

وما إن خيّم الليل على السهل حتى خرج «فالتر» من حفرته بتأنٍّ ، ومشى إلى القصر البعيد منطوي الظهر ، خائفاً ، وقلبه يَنبِض نَبْضاً متسارعاً . وقد آثر الذهاب إلى القصر لأنّ القرية كانت تبدو له خطيرة خطورة غاب تعجّ فيه النّمور .

كان النور يتسرّب من نوافذ القصر الأرضيّة ؛ وكانت إحدى هذه النوافذ مُشرَعة ، فانبعثت منها رائحة لحم مشويّ جاءت تداعب معدة «فالتر شنافز» ، فأخذ يلهَث ، وهو يشعر كأنّ مَغنطيساً يجذِبه إلى الداخل . وعصفت بقلبه جرأة مستميتة مفاجئة ؛ ومن غير تفكير ، وقف إلى النافذة وخوذته على رأسه !

كان ثمانية من الخدم يتناولون الطعام حول مائدة كبيرة . ورفعت خادمة منهم كأسها لتشرب ، ولكنّها

سرعان ما ألقتها من يدها ، وبقيت فاغرة فاها وعيناها جاحظتان ؛ فاستدار الجميع ينظرون إلى حيث كانت تنظر . وأبصروا العدوّ !

يا إلهي ! إن البروسيّين يهاجمون القصر !

وكانت صيحة واحدة انطلقت من حناجرهم جميعاً ، صيحة ذعر مروّعة ، أعقبها نهوضٌ لاغط ، وتَدافُعٌ جماعيّ ، وتشابكٌ فوضويّ ، واندفاعٌ نحو المخرج في فِرار هائم. وتساقطت الكراسي، وكان الرجال يدفعون النساء أرضاً ويمرّون من فوقهنّ . وما هي إلاّ ثوانٍ حتى لم يبقَ في القاعة أحد ؛ وانتصبت المائدة التي كانت عامرة بما لذّ وطاب من المآكل والمشرب قبالةَ «فالتر شنافز» المذهول ، وهو ما زال واقفاً إلى النافذة .

وبعد برهة من التردّد وجيزةٍ قطع حاجز النافذة وتقدّم نحو الصحون . كان يرتعد تحت وطأة الجوع الملحّ الساخط ، غير أنّ جَزَعاً مبهماً كان يردعه

ويثقل أعضاءه . أصغى بانتباه ، فإذا بالمنزل يهتزّ في كلّ جانب من جوانبه : فالأبواب في انفتاح وانغلاق ، والخطى فوق رأسه ، في الطابق العُلْويّ ، حائرة معجلة ؛ وبات البروسيّ يصغي إلى تلك الضّوضاء وهو شديد القلق . ثمّ سمع حسّاً غريباً ، فكأنّ أجساداً كانت تتساقط على التراب الطريّ عند أسفل الجدران . أجل ! إنّها أجساد الفارّين من جماعة القصر ، وثبوا من الدّور الاوّل مبتعدين من وجه العدوّ !

ثم همدت الحركة والبلبلة ، وغدا القصر ساكناً كالقبر .

جلس « فالتر شنافز » إلى صحن لم يكن قد مسّه أحد ، وشرع يأكل . كان يَزدرد لُقماً كبيرة وكانّه يخشى أن يقطع أحد عليه طعامه فلا يتسنّى له أن يلتهم كلّ شيء ! كان يُلقي الطعام في فمه بكلتا يديه ، فتهبُط الأكداس إلى معدته بسرعة فائقة نافخةً عنقَه في طريقها . وكان يتوقّف أحياناً وهو يكاد أن ينشقّ كانبوب مُتخَم ، فيتناول إبريق الخمر

ويكرع فيه فينظّف بُلعومه كما تنظّف ماسورة مسدودة .

أتى على الصحون كافّةً ، وأفرغ الزجاجات واحدةً واحدة ؛ فإذا به قد أسكره الشّرب والأكل على السواء ، فغدا خَبِلاً ، ممتقع اللون ، مشوّش الرأس ، يشهَق باستمرار . ففكّ أزرار بزّته وهو يتنفّس بصعوبة ولا يستطيع أن يأتي حركة . وكانت عيناه تغمُضان وقد تخدّرت حواسّه ، فوضع يديه على الطاولة وأسند إليهما رأسه ، فانطلق من عالم الواقع إلى عالم الأحلام في طيَران لطيف هانىء .

*

كان البَدر ينير الأفق فوق أشجار الحديقة . إنّها لَساعة باردة تسبُق إطلالة الصباح .

وبدأت أشباح تتسرّب إلى الغياض عديدةً صامتة . ومن وقت لآخر كانت أشعّة البدر تعكِس في الظلمة بريقَ نَصل فولاذيّ .

كان القصر صامتاً ، وكان طيفه الأسود الكبير شامخاً مهيباً . في الدَّور الأرضيّ كان النور ينبعث من نافذتين .

وفجأة دوَّى صوت راعد يصيح :

ـ إلى الأمام ! تقدَّموا ! هجوماً يا أولادي !

وفي لحظة خاطفة سقطت مَصاريع النوافذ والابواب تحت دُفقة من الرجال الذين اجتاحوا القصر يحطِّمون ما تقع عليه أيديهم . وما هي إلاّ ثانية حتى كان خمسون من الجنود المدجَّجين بالسلاح قد دخلوا إلى المطبخ حيث كان « فالتر شنافز » يرقد بسلام . وصوّب الجنود بنادقهم الخمسين إلى صدره ، ثمّ قلبوه وقبضوا عليه وشدُّوا وِثاقه .

تملَّكه الذهول ، وراح ينظر إلى الجنود يسيئون معاملته وهو يكاد أن يجنّ من الخوف .

وأقبل عسكريّ تزيِّن صدرَه أوسمةٌ عديدة ، فوضع قدمه على صدره وصاح به :

ـ إنَّك أسيري ، استسلم !

ولم يسمع البروسيّ غير كلمة « أسير » ، فقال وهو يئنّ : « يا ، يا ، يا » .

حُمل الأسير ورُبط إلى كرسيّ ، وراح المنتصرون ينظرون إليه بفضول ؛ وتراخى الكثيرون منهم على الكراسي وقد أنهكهم التأثّر والتعب .

أمّا هو فكان يبتسم ، لأنَّه وقع أخيراً في الأسر !

ودخل ضابط آخر فقال :

ـ سيدي الكولونيل ، لقد أركن الأعداء إلى الفرار ! ويبدو أنّ الكثيرين منهم أصيبوا بجروح . فنحن نسيطر الآن على الموقف سيطرةً تامّة .

وصاح العسكريّ البدين وهو يمسح العرق المتصبِّب من جبينه :

ـ ألنَّصر لنا !

وتناول من أحد جيوبه مفكّرة صغيرة ، ودوّن فيها : « بعد قتال ضارٍ أرغم البروسيّون على التراجع ،

حاملين معهم قتلاهم وجرحاهم الذين يقدّر عددهم بخمسين رجلاً . وقد وقع كثيرون منهم في قبضتنا » .

وتابع الضابط الشابّ سائلاً :

– ما هي الإجراءات التي ينبغي أن أقوم بها الآن ، يا سيّدي الكولونيل ؟

أجاب الكولونيل :

– سننسحب قبل أن يقوم العدوّ بهجوم معاكس بالمدفعيّة وبقوّات متفوّقة .

وأصدر بعدئذ أمراً بالجلاء عن المكان .

وتنظّمت صفوف الرّتل في الظلمة تحت جدران القصر ، وتحرّك الجنود يحيطون « بفالتر شنافز » من كلّ صوب ، وهو مكبّل ، وقد صوب إليه ستةٌ من المحاربين مسدّساتهم .

وانفصل بعض الرجال عن الرتل للاستطلاع ؛ فكانت المسيرة حذرة يتخلّلها بين الفَينة والفينة توقّفٌ خاطف .

وعند بُزوغ الفجر وصل الرجال إلى دار البلديّة في « روش – أوزيل » ، وكان رجال حرسها الوطنيّ هم الذين قاموا بمباشرة السلاح تلك .

كان السكّان ينتظرونهم قلقين ساخطين ؛ وحين شاهدوا خوذة الأسير تفجّرت صدورهم بصيحات صاخبة . فكانت النساء يهوّلن بايديهنّ ، وبكى من بينهنّ بعضُ العَجائز . ورمى رجل هرم البروسي الأسير بعُكّازه فاصاب به أنف أحد الحرّاس وجرحه!

وكان الكولونيل يصيح :

– إسهروا على سلامة الأسير .

وفي دار البلديّة زُجّ « بفالتر شنافز » في السجن بعد ما فُكّ وثاقه ؛ وقام على حراسة المبنى مئتا رجل بالسلاح الكامل .

عندئذ راح البروسيّ النّشوان يرقص متهلّلاً ، على الرغم من أعراض سوء الهضم التي كانت تعكّر مِزاجه ، وهو يطلق صيحات الفرح ، حتى سقط إلى

الحائط منهوكَ القوى .

إنّه الآن أسير ! لقد نجا من الموت !

وهكذا كانت استعادة قصر « شامبيني » بعد ما سيطر عليه العدوّ مدّة ستّ ساعات !

وأمّا الكولونيل « رانييه » ، تاجر القماش الذي أشرف على هذه العمليّة على رأس حرس « روش - أوزيل » الوطنيّ ، فقد مُنح وساماً مكافأةً له على بطولته !

الثأر

كانت أرملة « باولو سافيريني » تُقيم مع ابنها الوحيد في منزل حقير داخل أسوار « بونيفاسيو » [١] ، وهي مدينة مبنيّة فوق لسان من الجبل ناتىء ، حتى لتبدو في بعض الأماكن معلّقة في الفضاء فوق البحر ، تُشرف من علٍ على المَضيق الذي تَحِفّ به الصخور الحادّة ، وعلى ساحل « سردينيا » المنخفض . وهنالك ، عند أقدامها ، من الناحية الأخرى ، كان شَطر من الجُرُف يزنّر المدينة كلّيّاً أو يكاد ، وهو لها بمَثابة المرفإ يمكّن قوارب الصيد الإيطاليّة والسَّرْديّة

(١) بونيفاسيو : مدينة في جزيرة « كورسيكا » .

الصغيرة من التقدُّم إلى جوار بعض المنازل القريبة من الماء ، عبرَ حَلْقة طويلة بين الصخور العالية المستقيمة . ولم تكن تـؤمّ ذلك الممرّ من السفن غيرُ سفينة نقل بحارّية قديمة تعمل على خطّ « أجاكسيو » [1] .

وكانت مجموعة المنازل المنثورة فوق ذلك المرتفَع الأبيض ترصّع الجبل بنُقَط تزيد بياضه بياضاً ، وهي تبدو وكأنّها أعشاش الجَوارح معلّقةً على الصخر ، فوق ذلك الممرّ الرهيب الذي لم تكن السفن لتغامر في عبوره في أيّ وقت من الأوقات . وفي تلك المنطقة لا تعرف الريح هوادة ، فهي ترهق الساحل العاري وتَقرِضُه ، وتَعيث في ضِفّتيه فساداً في تسلّلها عبر المضيق . وأمّا سَحائب الزَّبَد الباهتِ العالقةُ بنواتىء الصخور المتراصّة السوداء ، فهي شبيهة برُقَع صغيرة من القماش الداثر تُرغي وتَنبِض فوق أديم الماء .

(١) أجاكسيو: عاصمة جزيرة « كورسيكا » .

كان منزل الأرملة « سافيريني » ، الملحم بطرف الجرف نفسه ، منفتحاً بنوافذه الثلاث على ذلك الأفق المتوحّش المكتئب .

لم يكن أحد يعيش معها في ذلك المنزل غيرَ ابنها « أنطوان » ، وكلبتها « سيميانت » ، وهي بَهيمة هزيلة ذات وَبَر طويل قاسٍ ، من فصيلة الكلاب التي تحرس القُطعان . وكان الشابّ يصطحبها للصيد .

وذات مساء لقي « انطوان سافيريني » حتفه ؛ فقد قتله « نيكولا رافولاتي » غَدْراً بطعنة خنجر على أثر مُشادّة ، ثمّ فرّ هارباً إلى « سردينيا » تحت جِنْح الليل .

حين تسلّمت الأمّ العجوز جثّة ولدها ، التي حملها إليها بعض الأهالي ، لم تبكِ البتّةَ ، بل وقفت تُديم إليها النظر ، ثم مدّت يدها المتجعّدة تلامس بها الجثّة ، وأقسمت على الثار . ولم تشأ أن يبقى معها أحد ، بل أغلقت بابها واختلت بابنها القتيل مع

« سيميانت » التي أخذت في النُّباح . وبقيت تنبح بلا انقطاع ، وهي منتصبة أمام طَرَف السرير ، تتطاول نحو سيّدها ، وذنبُها مشدود بين قوائمها كانت جامدة جمودَ الأمّ التي مالت في تلك اللحظة فوق الجُثّة تذرِف عليها دمعاً سخيّاً وهي تُنعِم فيها النظر .

كان الشابّ المسكين مسجّى على ظهره ، في سِترته الغليظة المثقوبة والممزّقة عند صدرها ، وكأنّه مستسلم لسُبات عميق . كان مضرّجاً بالدّماء التي غطّت قميصه وصِداره وسَراويله ووجهه ويديه . وكان بعض الدم قد تخثّر في لحيته وشعره .

وراحت الأُمّ العجوز تخاطبه ، فصمتت الكلبة لدى سماعها صوتَ سيّدتها . قالت :

ـ كن مطمئناً ، سأنتقم لك يا بُنيّ ، يا ولدي ، يا ولدي المسكين . نَمْ ، نَمْ ناعمَ البال ، فسأنتقم لك ، أتسمع ؟ إنّ أمّك لَتعِدك بذلك ! وأنت تعلم أنّ

أمّك تبرّ دائماً بوعدها .

وانحنت عليه برِفق تقبّل شفتيه الزرقاوين بشفتيها الباردتين .

وعادت « سيميانت » إلى أنينها . كانت تطلق نواحاً متّصلاً ، محزناً ، مرعباً . وبقيت المرأة وكلبتها على هذه الحال إلى انبلاج الصبح .

وفي اليوم التالي وُوري « انطوان سافيريني » الثّرى ، ولم يمضِ زمان طويل حتى كان ذكره قد انطفأ في « بونيفاسيو » .

لم يخلّف من الأقارب أخاً أو نسيباً . لم يكن أحد ليفكّر إذاً بأن يثأر له . ولكنّ الأُمّ ، تلك العجوز المسكينة ، كانت تفكّر بذلك من غير انقطاع .

في كلّ يوم كانت تنظر صباحَ مساءَ إلى نقطة بيضاءَ على الساحل البعيد ، في الناحية الأخرى من المضيق . إنّها « لونغوساردو » القرية السَّرْديّة الصغيرة ، التي

كان المجرمون الكورسيكيّون المطارَدون يلجاون إليها ، هم يشكلون قوام السكّان في تلـك الدَّسْكَرة المُجابِهة لسواحل موطنهم ، ينتظرون بفارغ صبر سانحةَ العودة إلى بيوتهم . وكانت الأم تعلم أنّ « نيكولا رافولاتي » قد لجا مثلَهم إلى تلك القرية الصغيرة .

كانت تجلِس إلى النافذة النهارَ كلَّه تحدّق إلى ذلك المكان البعيد وهي تفكّر بالانتقام . ولكنْ ما حيلتها وهي من غير سَنَد ، عاجزة قد شارفت الموت؟ بيد أنّها قد أقسمت على الثار ، وقد أدّت قسَمها على الجثّة نفسها ، فكان محالاً أن تنسى ، ولم يكن من سبيل للانتظار . فما العمل إذاً ؟ باتت لا تذوق للنوم طَعْماً ، ولا تجد للراحة والطمانينة سبيلاً ؛ فقد أكبّت بعناد حثيث على إيجاد وسيلة للانتقام . وكانت الكلبة ممدّدة عند قدميها ، ترفع رأسها من حين إلى آخر تَعوي عالياً على تلك الوَتيرة وكانّها تناديه ، أو كانّ ذِكراه قد بقيت منقوشة في لُبّها الذي عاف العزاء والسُّلْوان .

وذاتَ ليلة ، فيما عادت « سيميانت » إلى أنينها المعتاد ، خامرت الأمَّ فكرةٌ مفاجئة ، فكرةُ متوحّشٍ حَقود قاسي القلب ، فراحت تعالجها حتى الصباح . ونهضت عند بزوغ الشمس إلى الكنيسة ، وهنـاك خرّت أمام ربّها ساجِدةً تصلّي ، ضارعةً إليه ، طالبةً أن يمنحها السَّنَد والعَون وأن يهبها القوّة اللازمة لأن تثار لابنها .

ثمّ عادت إلى البيت . وكان لديها ، في باحة المنزل ، برميل صغير عتيق ، فقلبته وأفرغت منه ماء المَيازيب الذي كان ينصبّ فيه ، وثبّتته إلى الأرض بالحجارة والأوتاد ، ثم قيّدت « سيميانت » إلى ذلك المَرقد المختلَق وتركتها لحالها .

راحت تَذرع غرفتها بلا هَوادة وهي لا تُزيح بصرها عن الساحل السَّرْديّ ، فالقاتل الذي اغتال وحيدها كان هناك !

وعوت الكلبة طوالَ النهار والليل . وفي الصباح جاءتها العجوز بصَحفة فيها ماء ، ولكنّها لم تاتِها

بشيء من الحَساء أو الخُبز .

وانقضى يوم آخر . وأمّا « سيميانت » ، التي أدركها الوَهَن من قلّة الطعام ، فقد نامت نوماً محموماً . وفي اليوم التالي كانت عيناها متوقّدتين برّاقتين ، وكان بدنها مُقشعرّاً ، وهي تحاول من غير جدوى ، وبصورة يائسة ، أن تُفلت من السلسلة التي تقيّدها .

في مَطْلَع النهار ذهبت الأمّ « سافيريني » إلى أحد جيرانها وطلبت إليه أن يعطيها حُزْمتين من القشّ ؛ ثمّ عادت أدراجها ، وتناولت أسمالاً بالية كانت في الماضي ثياباً لزوجها ، فحشتها بالقشّ حتى انتفخت واتّخذت مظهر رجل حقيقيّ ؛ ثمّ غرست قضيباً في الأرض أمام مرقد « سيميانت » وعقدت إليه الشخص المصنوع الذي بدا وكأنّه منتصب على قدميه . وبعد ذلك جعلت له رأساً كرأس الآدميّين من رزمة قماش .

راحت الكلبة تنظر إلى شخص القشّ ذاك ، وقد

انتابها الفُضول ، وهي صامتة على الرغم من الجوع الذي كان يمزّق أحشاءها .

وخرجت العجوز إلى القَصّاب فابتاعت قطعة طويلة من اللحم القَديد الأسود . وعادت إلى البيت فاشعلت ناراً في الباحة بالقرب من مربط الكلبة ، وشرعت تشوي اللحم . واضطربت « سيميانت » ، وأخذت تثب وهي تُزبد وكأنّها قد أُصيبت بمَسٍّ من جنون ، وعيناها عالقتان بقطعة الشّواء التي تسرّب أريجها إلى أعماقها .

وبعد ما فرغت الأمّ من تحضير شوائها تناولته وربطته حول عنق شخص القشّ ، فغدا وكأنّه جزء منه لا يتجزّأ . ثمّ انطلقت إلى الكلبة ففكّت وثاقها .

وبقفزة جبّارة وصلت « سيميانت » إلى عنق الشخص وراحت تمزّقه وقوائمُها مركّزة على كتفيه . فكانت تهبط أرضاً بين حين وآخر وفي شَدقها قطعة

من فريستها ، ثم تعود فتثب من جديد مُعملةً أنيابَها في الحبـــال ، ملتهمة اللحم شيئاً بعد شيء وهي ما فتئت تزداد ضراوة . ولم تمضِ دقائق حتى كانت الكلبة قد نهَشت وجـه الشخص ومزّقت العنق إرْباً .

كانت العجوز تنظر صامتةً ، بارقةَ العين ، وهي لا تأتي حركة . وأوثقت كلبتها بعد ما شبعت ، وعمَدت إلى تجويعها بعد ذلـك يومين آخرين ، ثمّ عـادت في الأيّام التالية إلى تدريبها العجيب تكراراً .

وبقيت مدّةَ ثلاثة أشهر تضرّي كلبتها برجل القشّ وتعوّدها الحصول على طعامها بجدّ أنيابها . ثم أصبحت لا تربِطها ، بل كانت تعطيها إشارة من يدهـا فتنقضّ على الشخص تنهشه .

ثمّ درّبت المرأة كلبتها على تمزيق الشخص والتهامه من غير إن تطوّق عنقه بالقديد المشويّ كما كانت تفعل في البداية ، وكانت من ثمّ تقدّم لها الشّواء مكافأةً على عملها .



ما كان نظر « سيمبيانت » يقع على شخص القش حتى ترتعد ، فتستدير ناظرةً إلى سيدتها ، فتصيح تلك بصوت هادر وهي تشير إلى الهدف ببنانها : « إنطلقي ! »

ولمّا أيقنت الأمّ « سافيريني » أنّ الساعة قد أزِفت، ذهبت إلى الكنيسة في صبيحة يوم أحد للاعتراف والمناولة ، فأدّت واجبها الدينيّ بحرارة وخشوع . وبعد ذلك لبست ملابس الرجال فغدت في هيئة فقير رَثّ الثياب . واتّفقت مع صيّاد من « سردينيا » أقلّها مع كلبتها إلى الضِّفّة المقابلة من المضيق .

حملت معها في كيس من القماش قطعة كبيرة من اللحم القديد الأسود . وكانت قد بدأت تجوّع « سيمبيانت » منذ يومين . وخلال الرحلة القصيرة كانت تقدّم لها الكيس لتشمّ رائحة اللحم ، وتحرّضها ، فتثير هياجها .

وصلت المرأة مع كلبتها إلى « لونغوساردو » ،

فدخلت إلى أحد الأفران تسأل الخبّاز عن مسكن « نيكولا رافولاتي » فأخبرها الخبّاز أنّ « رافولاتي » قد عاد إلى مزاولة النجارة ، مهنتِه القديمة . وكان « نيكولا » في تلك الساعة بالذات يعمل وحده داخل محلّه .

دفعت العجوز بابه وصاحت به قائلة :

- هي ! نيكولا !

فالتفت . عندئذٍ أفلتت الكلبة وصاحت بها :

- إنطلقي ! إنطلقي ! إلتهميه ! إلتهميه !

وانطلقت الكلبة كالمجنونة فانقضّت على الرجل وأخذت بخناقه . ومدّ الرجل يديه للدفاع عن نفسه ، ولكنّه سقط على الأرض يتدحرج مع الكلبة ؛ وظلّ يتخبّط بضعَ ثوانٍ وهو يعفّر الأرض برجليه . ثمّ همدت أنفاسه ، فيما كانت « سيمبيانت » تمزّق عنقه شر تمزيق . وفيما بعد ، ذكر اثنان من جيران « نيكولا رافولاتي » أنّهما شاهدا فقيراً هَرِماً يخرج من المحلّ

وهو يعطي كلبته من كيس في يده قطعاً من طعام أسمر راحت تلتهمه بنهم شديد .

وفي المساء كانت العجوز قد عادت إلى منزلها ، لقد نامت تلك الليلةَ نوماً هانئاً .

ألصَّديقان

كانت « باريس » تنوء تحت الحصار ، تتضوّر جوعاً وفي حناياها حَشرجةُ الموت . لم يبقَ الدوريّ يرفرف طروباً فوق قرميد المنازل ؛ أمّا الناس فقد طفِقوا يأكلون أيّ شيء .

في صبيحة يوم مُشرق من أيّام كانون الثاني ، بينما كان « موريسو » يذرع الشارع كئيباً ، ويداه في جيبَي سراويله ، والفراغ يتأكّل أحشاءه ، إذ به أمام رجل استوقفه ، فتذكّره للحال : إنّه « سوفاج »، رفيقه القديم الذي كان يلتقيه في صيد السمك.

قبل نشوب الحرب كان « موريسو » يخرج للصيد

فجرَ كلٌّ أحد حاملاً قصبة الخيزُران بإحدى يديه، وعلى ظهره عُلبةٌ من تنك، فيركب قطار «أرجانتُوي»، لينزل في «كولومب»، ومن هناك ينطلق إلى جزيرة «مارانت» مشياً على قدميه. وفي جنّة أحلامه تلك كان يُكبّ على صيد الأسماك من غير توانٍ، ويبقى هكذا حتى حلول الليل.

هناك كان يلتقي رجلاً قصير القامة، بديناً، بَشوشاً، اسمه «سوفاج»، يحبّ صيد الأسماك كما يحبّه هو، فكانا يقضيان في الغالب نصفَ نهار كاملاً، جنباً إلى جنب، يمسك كلّ منهما بقصبته، وقدماهما متدلّيتان في مجرى الماء؛ فانعقدت الصداقة بين الاثنين بعد طول لقاء.

كانا أحياناً يجلسان صامتين وأحياناً يتجاذبان أطراف الحديث. إلاّ أنّهما كانا متّفقين بصورة مدهشة في صمتهما الطويل، إذ أنّ ذوقهما واحد ومشاعرهما متشابهة.

في الربيع، وفي الصباح الباكر، حين كانت

الشمس تنشُر على صفحة النهر سحابة بخاريّة شفّافة تنساب مع الماء، وتبعث في ظهر الصيّادَين المتحمّسين حرارةَ الفصل الجديد، كان «موريسو» يقول لرفيقه أحياناً:

- يا للعذوبة!

فيجيب «سوفاج»:

- لا أعذب ولا أحلى!

وكانت هذه الكلمات القليلة كافية للتعبير عن تجاوبهما وتآثرهما.

وفي الخريف، عند الغروب، حين كانت السماء تتضرّج بدماء الشمس الراحلة، فتعكِس على صفحة الماء صور الغيوم القانية، وتخلع على النهر بكامله وِشاحاً أرجوانيّاً، وتُضرم في الأفق ناراً متوقّدة، وتنثر طِلاءها الذهبيّ على الأشجار التي تَسري في عروقها رِعشةُ الشتاء، كان «سوفاج» ينظر إلى «موريسو» مبتسماً، فيقول:

- يا له من منظر رائع !

فيجيبه « موريسو » نشوان ، ومن غير أن يحوّل نظره عن عوّامته :

- إنّ هذا لأجمل من الشارع ، أليس كذلك ؟

وحين تقابلا في ذلك النهار ، تصافحا بحرارة ، والتأثّر بادٍ على محيّاهما لالتقائهما في ظروف الحرب العصيبة ، وتنهّد « سوفاج » ، وهمس في أذن صديقه :

- يا لها من أحداث رهيبة !

فأجاب « موريسو » وهو يئنّ اكتئاباً :

- يا للخسارة ! أنظر إلى هذا الطقس الجميل ؛ إنّه أوّل نهار مشرق هذه السنة.

ففي الواقع ، كانت السماء زرقاء الأديم ، تشعّ بالنور .

وسارا جنباً إلى جنب ، حالمَين ، حزينين، وأردف « موريسو » قائلاً :

- وصيد السمك ؟ ألا تحِنّ إلى صيد السمك ؟ يا لها

من ذكرى جميلة .

وتساءل « سوفاج » متحسّراً :

- متى نعود إليه يا ترى ؟

دخل الصديقان إلى مقهى صغير فتناولا كأس شراب ، ثم انصرفا وعادا إلى التنزّه على طول الأرصفة .

توقّف « موريسو » فجأة وقال لصديقه :

- ما رأيك في كأس ثانية ؟

فراقت الفكرة « سوفاج » . قال :

- فليكن ما شئت .

وعادا فدخلا إلى خمّارة أخرى . خرجا وهما يترنّحان ، وقد انتشيا بتأثير الشراب الذي ملأ معدتيهما الخاويتين . كان الجوّ عذباً ، والنسيم العليل يداعب وجهيهما .

قال « سوفاج » مستوقفاً رفيقه ، وقد أكمل

الهواء الرطب ثَمَله :

– ما رأيك في الذهاب ؟

– إلى أين ؟

– إلى صيد السمك طبعاً !

– ولكن إلى أين ؟

– إلى جزيرتنا . إنّ المراكز الفرنسيّة الأماميّة على مقربة من « كولومب » . أنا أعرف الكولونيل « ديولان » . ويقيني أنّ اجتيازنا لن يلاقي أيّة صعوبة .

إرتعش « موريسو » رغبة وقال :

– إتّفقنا . هيّا بنا .

ثم افترقا على أن يذهب كلٌّ منهما لتحضير معدّاته .

ولم تنقضِ ساعة حتى كانا يسيران جنباً إلى جنب عبر الطريق الكبيرة . ووصلا إلى الدارة التي كان الكولونيل يحتلّها ، فابتسم لهما وقبل بتحقيق

رغبتهما ، فانصرف الصديقان مزوَّدَين بإذن خاصّ للمرور .

وما هي إلاّ دقائق حتى كانا يجتازان المخافر الأماميّة ، فعبرا « كولومب » وهي مقفرة ، وإذا بهما بمحاذاة الكروم الصغيرة التي تنحدر نحو « السين » . وكانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة .

في الجهة المقابلة كانت « أرجانتوي » أشبه بقرية ميتة . وكانت مرتفعات « أورجومون » و « سانو » تشرف على المنطقة بكاملها . وأمّا السهل الكبير الذي يمتدّ حتى « نانتير » ، فقد كان خَلاء ، بشُجيرات كَرَزه العارية ، وبأراضيه الشّهباء .

أشار « سوفاج » ببنانه إلى الذُّرى وهمس قائلاً :

– إن البروسيّين هناك .

فاعترت الصديقين في تلك البقاع القاحلة قُشَعْريرةُ القلق .

ألبروسيّون ! لم يقع عليهم بصرٌ قط ، ولكنّ

السكان كانوا يشعرون بدنوهم منذ شهور طويلة ، حول « باريس » ، يفتكون بـ « فرنسا » ويُعملون فيها السلب والجوع وسفك الدماء ، غير منظورين ، ولكنْ ذوي سَطوة وبأس . وكان ذعر خُرافيّ يسيطر على القلوب ، يرافقه حقد على ذلك الشعب المجهول المظفَّر .

قال « موريسو » متلعثماً :

ـ ماذا نفعل فيما لو التقينا بعضهم ؟

فأجاب « سوفاج » والسخرية الباريسيّة المعهودة في كلامه :

ـ نقدّم لهم سمكاً مقليًّا ...

بيد أنّهما وقفا برهة متردّدين ، وقد بعث الصمت المحدق في قلبيهما قلقاً وخَشية .

وأخيراً شدّ « سوفاج » عزمه وقال :

ـ هيّا ، إلى الأمام ، ولنكن حذرين .

ثمّ نزلا إلى أحد الكروم وراحا يزحفان منحنيين ،

متسترين بالشجيرات ، والعينُ منهما يقظة ، والأُذن صاغية . وللوصول إلى ضفّة النهر كان عليهما أن يجتازا رُقعة من الأرض جدباء ، فانطلقا يعدُوان بسرعة . وما إن بلغا الضفّة حتى تقوقعا مختبئين في حنايا القصب الجافّ .

إنحنى « موريسو » وألصق أذنه بالأرض متحرّياً ما إذا كان أحد يمشي في الجوار ؛ فلم يسمع شيئاً . لقد كانا وحيدين .

إطمأنّ بالهما ، فجلسا ينعَمان بمُتعة الصيد .

كانت جزيرة « مارانت » المهجورة المنتصبة قُبالتهما تحجُبهما عن الضفّة الأُخرى . وكان مبنى المطعم الصغير مقفلاً ، وكان أمره قد أهمل منذ سنوات طويلة .

علقت بصنّارة « سوفاج » سمكةٌ بوريّة أولى ؛ واصطاد « موريسو » الثانية . ومن وقت لآخر كنت ترى كلاًّ منهما يرفع قصبته وفي طرفها سمكةٌ صغيرة



فضيّـة ترتعش طويلاً . إنّـه حقّاً لصيد موفّق عجيب !

راحا يضعـــان السمك في جيب من الشَّبَك ذي عُقد متماسكة ، وقد اجتاحت قلبيهما نشوةٌ غامرة ؛ إنّها تلك النشوة التي تخالجك حين تعـــود إلى شيء تحبّـه بعد ما حُرمتَـه زماناً طويلاً .

كانت الشمس الطيّـبة تصُبّ دفئها في كتفيهما ، فاقلعا تماماً عن الإصغاء ، ولم يفكّـرا بشيء : إنّهما في عُزلة تامّـة عن بقيّـة العالم ، إنّـهما يصطادان .

واهتزّ الحضيض فجأة بدويّ بعيد ، و كانّـه صادر من أعماق الأرض . إنّـه المِدفع يقصِف .

أدار « موريسو » رأسه ، فأبصر من فوق الضفّـة ، هناك ، إلى اليسار ، طيف جبـــل « مون ـ فاليريان » الشاسع ، الذي علت جبينَـه عُفرةٌ بيضاء من دخان البارود .

وللحال انطلق دفق من الدخان آخرُ من رأس القلعة ، تبـه دويٌّ عاصف .

وتعاقبت الانفجارات ، فكان الجبل يصعّد من حين إلى حين لُهاثه القاتل ، وينفُث زفيراً من بخار أبيضَ كان يتصاعد نحو السماء ببطء فيستقر في كبدها رقعةً من غَمام .

هزّ « سوفاج » كتفيه وقال :

ـ ها هم يعودون إلى القصف .

وأمّا « موريسو » ، الذي كان ينظر بقلق إلى ريش عوّامته يغوص في الماء مرّةً تلو الأخرى ، فقد شعر بغتةً بغضب الرجل الآمن إزاء أولئك الكلِبين الذين يتعاركون على هذه الشاكلة ، وقال متذمّراً :

ـ إنّها لرعونة غاشمة أن يقتتل الناس هكذا .

قال « سوفاج » :

ـ لو كانت هناك جمهوريّة لما أعلنت الحرب ...

وقاطعه « موريسو » :

ـ في النظام الملكيّ تكون الحرب في الخارج ، وأمّا

الجمهوريّة فحروبها داخلية .

وراحا يتناقشان بهدوء ، ويَحُلاّن عقدة المُعضلات الكِبار بالمنطق السليم الذي يتحلّى به الرجال الوُدعاء السُّذَّج . واستمرّ جبل « مون ـ فاليريان » يقذف حُممه بلا هوادة ، يدمّر بقذائفه منازل فرنسيّة ، ويطحن الرؤوس ، ويقضي على أحلام الرَّغد والسعادة ، باعثاً في قلوب النساء والفتيات والأُمّهات ، هنالك ، في مناطقَ أخرى ، آلاماً لا تُمحى .

قال « سوفاج » :

ـ هذي هي الحياة .

فأجابه « موريسو » ضاحكاً :

ـ قل بالحريّ إنّه الموت .

ثمّ انتفضا مذعورين وقد شعرا بوقع خطى وراءهما . واستدارا في آن معاً فأبصرا فوق كتفيهما أربعة رجال طوال القامة مسلّحين وملتحين ، يعتمرون خُوَذاً ، وفي أيديهم بنادقُ صوّبوها إلى رأسيهما .

أفلتت القصبتان من يديهما وراحتا تنحدران متعرّجتين مع مجرى النهر .

وقبض الرجال الأربعة على الصديقين بسرعة ، وألقوا بهما في زورق أقلّهما إلى قلب الجزيرة .

ورأى الصديقان وراء المنزل ، الذي اعتقدا أنّه مهجور ، نحواً من عشرين جندياً ألمانياً .

وبادرهما بالكلام رجلٌ أشعث كان جالساً منفرج الساقين على كرسيّ ، وفي فمه غليون خزفيّ كبير . سألهما بلهجة فرنسيّة ممتازة :

ـ هل وفّقتما بصيدكما ؟

عندئذ تقدّم منه جنديّ ووضع عند قدميه الشبكة المملوءة سمكاً . إبتسم البروسيّ وقال :

ـ أرى أنّ الحظّ كان حليفكما . ولكنّ الأمر يتعلّق بموضوع آخر ، فاسمعا جيّداً ولا تضطربا .

« أنا أعتبركما جاسوسين مبعوثين في مهمّة لمراقبتي . وباستطاعتي الآن أن آمر بإعدامكما ، فقد كنتما

تصطادان كي تموها مخطّطاتكما . إنّها الحرب . وبما أنّكما قد خرجتما عبر المخافر الأماميّة ، فأنتما تعرفان كلمة السرّ . أعطياني كلمة السرّ هذه أعفُ عنكما .

وأمّا الصديقان اللذان وقفا شاحبين جنباً إلى جنب ، تسري في أيديهما رعشةٌ عصبيّة ، فقد أطرقا واجمين .

واستطرد القائد قائلاً :

ـ لن يعرف بذلك أحد . وستعودان ، كما أتيتما ، بأمان . وسيتلاشى السرّ باختفائكما . أمّا إذا كان جوابكما رفضاً ، فالموت لكما ، وفي الحال . فاختارا ما تشاءان .

وبقيا ساكتين لا ينبسان ببنت شفة .

وأردف البروسيّ بهدوء تامّ ، وهو يشير إلى النهر بيده :

ـ فكّرا بأنّكما ستكونان في قعر الماء هناك ، بعد دقائق قليلة . أوليس لكما أهل ولا أقارب ؟

وبقي « مون ـ فاليريان » يُرعد من غير انقطاع .

وبعد ما رأى الألماني أنّ الصديقين يعتصمان بالصمت أصدر بعض الأوامر بلغته ، ثم غيّر موضع كُرسيّه كي لا يكون كثير القرب من الأسيرين . وأتى اثنا عشَرَ رجلاً فاصطفّوا على بُعد عشرين خطوة ، وبندقيّتُه كلّ منهم إلى جنبه .

وتابع الضابط قائلاً :

ـ أمامكما دقيقة واحدة لا أكثر .

ثم نهض فجاة وتقدّم من الفرنسيّين ، فتأبّط ذراع « موريسو » واختلى به ، ثمّ قال له بصوت خافت :

ـ أسرع ، قل لي ، ما هي كلمة السرّ ؟ لن يرتاب صديقك بشيء . ثمّ إنّي سأعفو عنكما إن أنت استجبت لمشيئتي .

لم يفُه « موريسو » بكلمة .

ثمّ اختلى البروسيّ بـ « سوفاج » وطرح عليه

السؤال نفسه .

ولم يفُه « سوفاج » بكلمة .

وعاد كلٌّ منهما إلى جانب صديقه .

وعاد الضابط يصدر أوامره ، فرفع الجنود بنادقهم .

ووقع نظر « موريسو » عفواً على الشبكة الملأى بالبوريّ ، التي بقيت فوق العشب ، قيدَ خطوات منه . وكانت أشعّة الشمس تداعب الأسماك وهي ما تزال تختلج في داخلها ؛ فاعتراه ضعف مفاجىء ، وتفجّر الدمع من عينيه ، وقال متلعثماً :

ـ ألوداع يا مسيو « سوفاج » .

وأجاب « سوفاج » :

ـ ألوداع يا مسيو « موريسو » .

وشدّ كلّ منهما يد الآخر ، وقد سرت في جسديهما قشعريرة طويلة .

وصاح الضابط :

ـ ألنّار !..

فدوت الطلقات وكأنّها طلقة واحدة .

سقط « سوفاج » دفعة واحدة يعفّر التراب بأنفه ؛ وأمّا « موريسو » ، وكان أكبر قامة ، فقد اهتزّ قليلاً ، ثم استدار على بعضه وانهار فوق جثّة صديقه ووجهه إلى السماء ، بينما راحت فقاقيع الدم تتدفّق من قميصه الذي شُقّ فوق صدره .

وعاد الضابط يصدر أوامر جديدة .

تفرّق الجنود ، وما لبثوا أن عادوا بحبال وحجارة فرُبطت إلى أقدام القتيلين ، ونقلوا الجثّتين إلى ضفّة النهر .

وازداد « مون ـ فاليريان » عَصفاً ، وقد كلّلته في تلك اللحظة جبالٌ من دخان .

حمل جنديّان « موريسو » من رأسه ومن قدميه ؛ وحمل جنديّان آخران « سوفاج » بالطريقة نفسها . ودفع الجنود الجثّتين بقوة ، فغاصتا في النهر وقد

شدّت بهما الحجارة إلى القاع بسرعة .

تعكّر صفو الماء فارتعش قليلاً ، ثمّ سكن أديمه ، فيما راحت موجات صغيرة ترتطم بالشاطىء .

وطفا على سطح الماء بعض الدماء .

قال الضابط وهو ما يزال معتصماً بالهدوء :

ـ لقد أتى الآن دور الأسماك .

واستدار عائداً باتّجاه المنزل .

ورأى كيس البوريّ الذي بقي فوق العشب ؛ فالتقطه ، وتفحّصه ، ثمّ ابتسم وصاح :

ـ « فلهلم » .

أسرع جنديّ يرتدي مئزراً أبيضَ ، فدفع إليه الضابط بصيد القتيلين وقال بلهجة آمرة :

ـ أريدك أن تقلي لي في الحال هذه الحيوانات الصغيرة وهي حيّة . فسوف يكون طعمها لذيذاً للغاية .

ثمّ عكف على غليونه يدخّن بشَغَف .

الشحاذ

لقد عرف أياماً خيِّرة فيما مضى ، على الرغم من شقائه وعاهته .

كان في الخامسةَ عشْرةَ من عمره حين هشَّمت قدميه عربةٌ على طريق « فارفيل » ، وهو ، منذ ذلك الحين ، يجوب الطُّرُقات حابياً لا يملك شَرْوَى نقير ، يمدّ يده متسوّلاً ، يغشَى باحات المزارع مترجِّحاً بين عُكّازيه يرفعان كتفيه إلى مستوى أذنيه ، فيغور رأسه بينهما كوادٍ بين جبلين .

كان كاهن « بيليت » قد عثر عليه على قارعة الطريق وهو ما زال طفلاً رضيعاً ، ليلةَ عيد

الأموات ، فاطلق عليه اسم « نيكولا توسان » . وقد شبَّ وهو رَبيب الإحسان ، بعيداً عن عالم التربية والمعرفة ، كسيحاً بعد إصابته على أثر شربه بضعَ كؤوس من الكحول قدّمها له خبّاز القرية الذي كان يروم التسلية . وقد عاش ذلك اللّقيط متشرّداً لا يجيد في الحياة عملاً غيرَ الاستعطاء .

في الماضي كانت بارونة « أفاري » قد أنعمت عليه بمأوى هو عبارة عن جحر ضيّق فُرش بالقشّ ، إلى جانب قُنّ الدجاج ، في المزرعة المتاخمة للقصر ؛ فكان، عندما يُنشب فيه الجوع أظفارَه ، يدقّ باب المطبخ فيجد فيه مَن يقدّم له كِسْرة خبز أو كاسَ نبيذ يشفي بها غَليله . بيدَ أنّ السيّدة العجوز ، التي كانت تخصّه ببعض عنايتها ، قد فارقت الحياة ، فاهمل مَن في القصر أمره .

في القرى لم يبقَ أحد يحسن إليه ؛ فقد أصبح وجوده بين الأهلين أمراً مألوفاً ، حتى إنّهم ملّوا رؤيته وهو يدور ، لأربعين سنة خلت من كوخ إلى

كوخ ، بجسده المشوّه وساقيه الخشبيّتين . ولكنه لم يكن يشاء النزوح ، فهو لا يعرف في الدنيا غير تلك البقعة من الأرض ، بقراها الثلاث أو الأربع ، التي عاش فيها بؤسه منذ فجر حياته . لقد رسم لنطاق تسوّله حدوداً معيّنة ، وهو لم يفكّر البتّة في مجاوزة تلك الحدود .

لم يكن يعلم ما إذا كان العالم يمتدّ إلى ما وراء الأشجار التي تحُدّ بصره ؛ ولم يكن ليَشغَل فكره بالتساؤل عن ذلك الأمر . كان الفلاّحون ، الذين عافوا وجوده في حقولهم ، يصيحون في وجهه :

– لماذا لا تذهب إلى القرى الأُخرى بدلاً من أن تجرّ خطاك على الدوام في هذه الأنحاء ؟

لم يكن ياتي جواباً ، بل كان يبتعد وقد تملّكه خوف من المجهول ، خوف من الوجوه الجديدة التي سيلتقيها إن هو انصرف إلى مكان آخر ، خوف من الشتائم ، ومن الارتياب الذي يلوح في نظر الناس



الذين لا يعرفونه ، ومن رجال الدرك الذين يسيرون في الطرق بين القرية والأخرى أزواجاً أزواجاً ، فيغوص عند مَقْدَمهم بين الأعشاب أو وراء أكوام الحصى ، يتوجّس منهم شرّاً من غير سبب .

كان إذا ما شاهدهم قادمين من بعيد يحسّ بخفّة غريبة ، خفّة وحش ثقيل يسعى إلى مخبإ يلوذ به ؛ فكان يطرح بعكّازيه أرضاً ويَهوي فوق التراب كالخرقة المهلهَلة ، ويتجمّع بعد ذلك ويتدحرج كالكرة ، ضئيلاً يكاد يمتزج بالتربة التي يتمرّغ فيها بأسماله السمراء بلون الأرض .

لم يكن قد اصطدم باولئك الدركيّين ولا مرّة واحدة ، إلاّ أن خوفه منهم كان متشبّثاً به ، ينساب في عروقه وكأنّه قد ورثه عن أبويه اللذين لم يعرفهما قط .

لم يكن له ملجأ ولا سقف ولا كوخ ولا مأوى . فهو ينام صيفاً في أيّ مكان يعرض له ، وفي الشتاء

يتسلل إلى العنابر أو إلى الإسطبلات بخفة ومهارة ؛ ثمّ يعود إلى الانصراف من غير أن يشعر أحد بوجوده . كان يعرف مكان كلّ ثُغرة وكلّ مَنفَذ يقود إلى داخل الأبنية . وإذ كان العكّازان قد أكسبا يديه عضلاتٍ فولاذيّةً ، فقد كان يتسلّق إلى أنبار العَلَف بقوّة زَنديه ، فيبقى فيها أربعة أيّام أو خمسةً من غير حراك ، وذلك حين يكون قد جمع من المؤن والزاد ما فيه كَفافُه .

كان يعيش بين الناس كالبهائم في الغابات ، لا يعرف أحداً ، ولا يحبّ أحداً ، يزدريه الفلاّحون جميعاً ولا يُكنّون له غير العداوة والاحتقار . وقد أطلقوا عليه اسم « الجرَس » لأنّه ، في ترجُّحه بين عكّازيه الخشبيّين ، كان يبدو كالجرس بين دفّتي قبّته .

لم يذق الطعام منذ يومين . لم يبقَ أحد يعطيه شيئاً . لقد أصرّ الجميع على التنكّر له بصورة قاطعة .

فالنساء يصِحن به من بعيد وهنّ يرينه مُقبِلاً نحو بيوتهنّ :

ـ لا تقترب أكثر من ذلك ! ألم أعطِك كِسرة منذ ثلاثة أيّام !؟

فكان يستدير على نفسه فيولّي شطرَ المنازل الأخرى ، فيطرُدُه أصحابها بلا شفقة ولا رحمة .

وكانت النساء يتخاطبن من على عتبات منازلهنّ ، فتقول الواحدة منهن للأخرى :

ـ أيظنّ هذا الكسول أنّ باستطاعتنا إطعامه طوال السنة ؟

إلاّ أنّ الكسول هذا بحاجة إلى أن يأكل كلَّ يوم كما يأكل غيره من الناس .

في ذلك النهار طاف بالقرى فلم يحصُل على قرش واحد ولا على كسرة خبز ولو صغيرة . وكانت قرية « تورنيل » هي خاتمة المَطاف ، وهو لمّا يبلغها بعد . ولكنّ « تورنيل » كانت على بعد ثمانية كيلو مترات ،

وكان يشعر بأنّه لن يقوى على الزحف للوصول إليها ، لأنّ الجوع قد نال منه وأوهن جسده . ومع ذلك انطلق نحو وُجهته وقلبُه مفعم بالأمل .

كان ذلك اليوم يوماً من شهر كانون الأوّل ، والريح الباردة تجتاح الحقول وتصفِر في الأغصان العارية ، والغيوم تعبُر السماء القاتمة سريعة ، تسعى في سباقها الهائم إلى المجهول . وراح الكسيح يتنقّل بتأنٍّ ، يحرّك عكّازيه الواحد بعد الآخر وهو متثقَل الخطى ، ويبذل جهوداً جبّارة فيكاد يسقط من الإعياء . ومن حين إلى حين كان ينحرف إلى جانب الطريق فيستريح دقائق قليلة .

لقد بدأ الجوع ينهَش نفسه الكئيبة اليائسة . كان الطعام شغله الشاغل ، إلاّ أنّه لم يكن يعرف سبيلاً إلى ذلك الهدف الذي تسلّط على عقله .

ظلّ يزحف على الطريق المرهق ثلاثَ ساعات . وأبصر من بعيد طيفَ الأشجار الباسقة عند مدخل

القرية ، فحث إليها الخطى وقد دب في أوصاله نشاط جديد .

ومدّ يده بلهفة لأوّل قرويّ صادفه ، فبادره هذا بقوله :

ـ ها أنت تعود إلينا ثانية ! ألن نتخلّص منك أبداً ! ؟

وابتعد « الجرس » مطأطىء الرأس ؛ وراح الناس يعنّفونه ويطردونه من كلّ منزل يدقّ بابه . ولكنّه استمرّ في محاولته بعناد وثبات ، فلم يُجْدِه سعيه فتيلاً .

وسار بعد ذلك شطر المزارع وهو يغور في التراب الذي بلّله المطر ، غيرَ قادر على تحريك عكّازيه ، وقد بلغ منه الخَوَر مُنتهاه ، فلقي فيها من الإهانة والشتائم ما لقيه في جولاته السابقة . كان ذلك النهار بارداً كئيباً ، والقلوب فيه متحجّرة يجثِم فوقها ثِقَلُ قاسٍ قساوةَ الطقس عينه ، والعقول

فيه مضطربة كأنّ تيّار التشويش في الفضاء العابس قد تسرّب إلى أعماقها ، والنفوس فيه مُدلَهِمّة من وحي السماء الغاضبة . فأنّى للأيدي أن تُحسن ، وللبِرّ أن يفيق من غفوته ، والناس هكذا في حالة نفسيّة رهيبة ؟

بعدما انتهى من زيارة البيوت كلّها ، ألفى بنفسه في حفرة بجوار منزل المعلّم « شيكي » . وبقي هناك جامداً يتضوّر جوعاً ، وقد غدا خَبِلاً لا يجد حيلة لدرء شقائه وبؤسه .

ماذا كان يتوقّع يا ترى من جرّاء هذا الانتظار اليائس ؟ ففي زاويته تلك التي لجأ إليها ، وفي غمرة الريح الجليديّة العاتية ، كان ينتظر ذلك العون المُبهَم الذي يأمل كلٌّ منّا هبوطه من السماء أو صدوره عن الناس ، من غير أن نتساءل من أين قد يأتي أو كيف . ومرّت من أمامه بضع دجاجات تبحث عن قُوتها في الأرض التي تغذّي المخلوقات ، فكانت تنقُد حبّة من

هنا أو حشرة من هناك ، ثمّ تواصل سعيها وراء المزيد من القوت بعزم وأناة . وكان « الجرس » ينظر إليها وهو ساهٍ ، إلى أن خطرت بباله ، أو بالأحرى خطرت ببطنه المعذّب ، فكرةٌ طريفة : فدجاجة من هذه الدجاجات ستكون ، ولا ريب ، لذيذة إذا شُويت على نار خفيفة من الحطب اليابس !

ولكنّه لم يفكّر البتّة بأنّه كان مُقبلاً على ارتكاب سرقة ؛ فالتقط حجراً ورمى به أقرب دجاجة إليه ، فأرداها للحال ، فسقطت على جنبها وجناحاها ينتفضان . وفرّت الدجاجات الأُخَر وهي تتبختر فوق قوائمها الدقيقة ، واعتلى « الجرس » عكّازيه من جديد ، وتحرّكَ نحو طريدته يهُمّ بالتقاطها ، وهو يتبختر كالدجاجات في مشيته .

وما إن بلغ الجثّة الصغيرة التي لطّخ الدم رأسها حتى تلقّى صدمة عنيفة في ظهره ألقت به أرضاً وجعلته يتدحرج حتى استقرّ على بعد عشر خطوات ؛ وإذا بالمعلّم « شيكي » ينقضّ على السارق

كالمجنون ، فيشبعه رَكلاً وضرباً بقبضتيه ورجليه .
إنهالت الضربات على كلّ عضو من أعضاء الكسيح وهو لا حَولَ له للدفاع عن نفسه ولا قوّة .

وأقبل كلّ مَن في المزرعة يُسهم مع السيّد في ضرب الشحّاذ . وبعد ما شفى الجميع غليلهم ، وكلّت من الضرب أيديهم ، حملوه إلى مخزن الحطب وأغلقوا عليه الباب ريثما يذهب أحدهم لاستدعاء الدركيّين .

وأمّا « الجرس » ، الذي كان ينزف دماً من جروح عديدة في جسده ، والذي كاد يموت من الألم والجوع ، فقد بقي مستلقياً على الحضيض لا يحرّك ساكناً . وأقبل الليل ، وطلع بعده فجر اليوم التالي ، وهو لمّا يعرف للطعام مَذاقاً .

وعند الظهر أقبل دركيّان إلى المزرعة ، فجاءا زنزانة الكسيح وفتحا بابها بحَذَر لكون المعلّم « شيكي » قد ادّعى أنّ السارق قد هاجمه ، وأنه وجد في الدفاع عن نفسه صعوبة جمّة !

وصاح الجاويش بـ « الجرس » :

ـ هيّا انهض !

ولكنّ العزم كان قد فارق جسد المسكين من غير رجعة ، وحاول أن يتسلّق عكّازيه فلم يُفلح ؛ وظنّ الجنديّان أنّه كن يراوغهما ، وأنّ حيلة كانت تختمر في مخيّلته ، فاقتربا منه وضرباه ، ثمّ التقطاه بخشونة ووضعاه قَسْراً على عكّازيه .

كان الخوف قد بدأ يتغلغل في قلبه كما في كل مرّة يرى فيها الدركيّين ، ذلك الخوف الذي يعتري الطريدة وهي في وجه الصيّاد ، والذي يستفيق في صدر الفارة وهي تفرّ هلِعةً من وجه الهرّ . ولكنّه استطاع أن يبقى واقفاً بفضل مجهود فائق .

صاح به الجاويش :

ـ تقدّم !

وتقدّم الكسيح ، وعمّال المزرعة ينظرون إليه . لقد أُلقي القبض عليه أخيراً ! وها هم قد تخلّصوا

منه بصورة نهائية .

وكان الناس الذين يمُرّون به وهو في طريقه إلى السجن يتوقّفون متهامسين :

- يا للسارق الخبيث !

وفي المساء بلغ الموكب مركز القضاء ، ولم يكن الشحّاذ قد وصل إليه في حياته . كان يظنّ نفسه في حُلم مزعج ، ولم يكن ليفكّر بما سيحِلّ به . فتلك البيوت والوجوه الجديدة التي كانت تُحدق به ، والأحداثُ الرهيبة التي تعاقبت عليه ، قد جعلت الدنيا سوداء في عينيه .

لم يفُه بكلمة واحدة لأنّه لم يبقَ يعي شيئاً ممّا يحدث له . وهو ، في أيّ حال ، قد بدأ يفقد النُّطق لأنّه ، عبرَ السنين الطويلة التي مرّت عليه ، لم يكلّم أحداً إلا نادراً . وقد ثقُل صمته في تلك اللحظة ، فلو أنّه أراد نطقاً لما استطاع ، لأنّ اضطرابه النفسيّ قد ألقى على عقله غشاء كثيفاً مشوّشاً .

طُرح « الجرس » في سجن القرية ؛ ولم يفكّر الدركيّان بأنّ السجين قد يكون بحاجة إلى بعض القُوت ، فاهملا أمره حتى جاء اليوم التالي .

ولكنْ ، حين أتى الجنود لاستجوابه في الصباح الباكر ، وجدوه مسجّى على الأرض وقد فاضت روحه .

يا لها من مفاجأة ! !

الأسئلة

١ – أسرى الغابة

– ما هي الصفات الأساسيّة التي تحلّت بها « برتين » ؟

– كيف ظهرت لك الروح الوطنية في تصرّفات أشخاص القصّة ؟ إختر بعض المواقف التي تظهر فيها هذه الروح النبيلة .

٢ – الحارس

– الصيد رياضة شهيرة يمارسها عدد كبير من الناس . إختر من القصّة مقاطع تظهر لنا اللذّة التي يجنيها أصحاب هذه الرياضة .

– قارن بين شخصيّة الأب « كافاليه » وشخصيّة « ماريوس » . ما هي الصفات التي تحبّب لك الأوّل وتبغّضك بالثاني ؟

٣ – انتقام أمّ

– ما هي الصفات التي دعت الأمّ « سوفاج » الى الانتقام من الجنود البروسيّين بعد ان كانت تعاملهم برحمة ؟

– ما هي الوسيلة التي لجأت إليها في الانتقام ؟

٤ – الذئب

– كيف ظهرت شجاعة الشقيقين في القصّة ؟

– كيف تمكّن « فرنسوا » من الانتقام لأخيه من الذئب ؟

٥ – فالتر شنافز

– ما هي الأسباب التي حملت « فالتر » على الفرار من الخدمة العسكرية ؟

– كيف وقع في الأسر ؟ وما هي العواطف التي انتابته بعد الأسر ؟ هل هي طبيعية بنظرك ؟

٦ – الثــأر

– كيف تظهر قساوة طباع الأرملة في القصّة ؟

– أين الوحشيّة في طريقة انتقامها ؟

٧ – الصديقـان

– كيف قاد حبّ صيد الأسماك الصديقين الى الموت ؟

– كيف ظهرت شجاعة الصديقين في مواجهة حتفهما ؟

٨ – الشحاذ

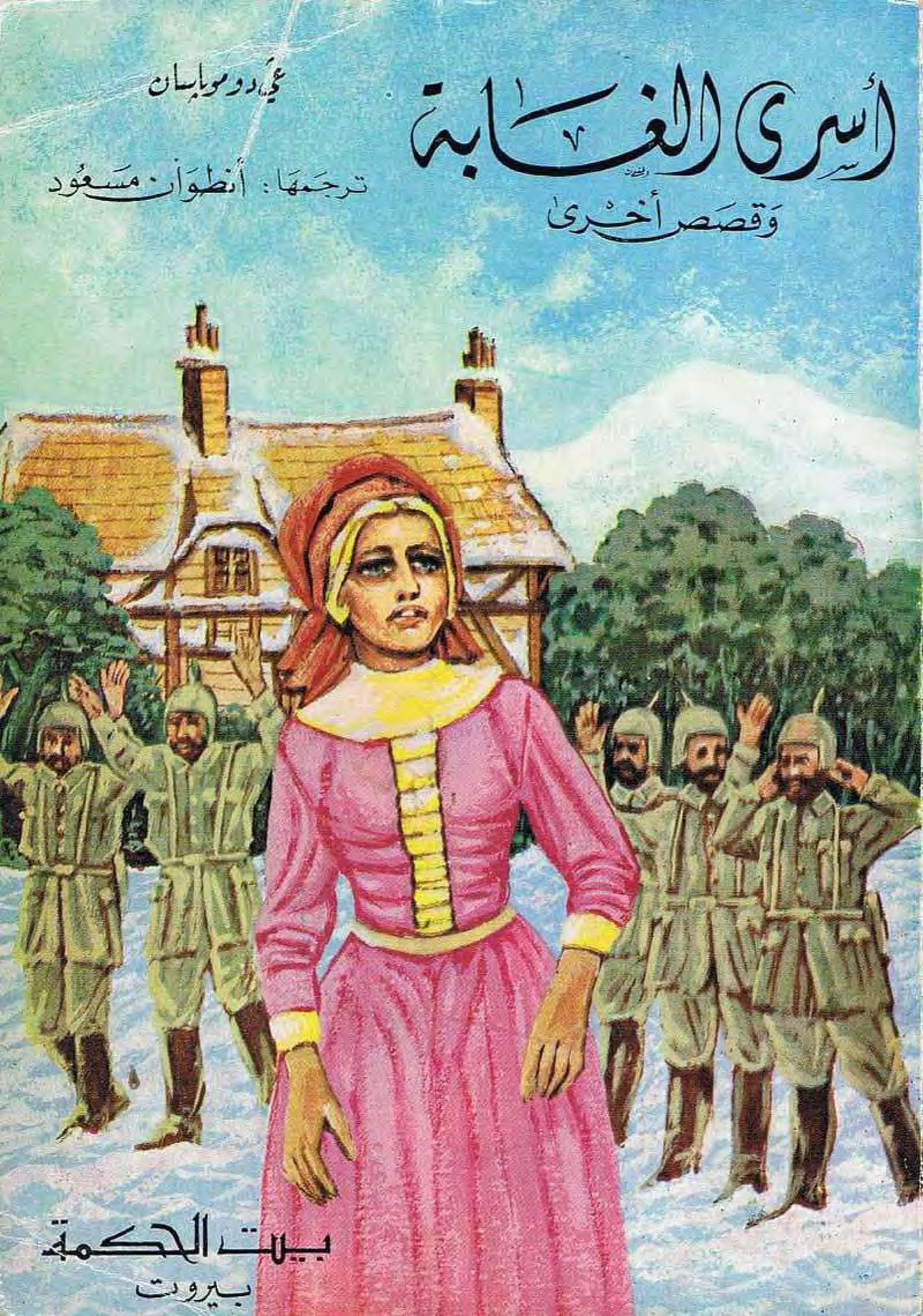
– ما هي العواطف التي انتابتك بعد قراءة القصّة ؟

– كيف تظهر لنـا قساوة الإنسان على أخيه الإنسان في موت الشحاذ ؟

محتوى الكتاب

وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب في
يوم ٣٠ آب (اغسطس) ١٩٨٤
على مطابع دار غنـدور ش.م.م.
بـيروت

١٨٧ / ٨ - ١٩٨٤


أسرى الغابة
وقصص أخرى
غي دو موباسان
ترجمها: أنطوان مسعود
بيت الحكمة
بيروت